المكتبة الثقافية
١٤٠

حركة السكان

الدكتور محمد السيد غلاب

الدار المصرية للتأليف والترجمة

١ سبتمبر ١٩٦٥

المكتبة الثقافية
١٤٠

حركة السكان

الدكتور محمد السيّد غلاب

الدار
المصرية
للتأليف
والترجمة

١ سبتمبر ١٩٦٥

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

مسائل السكان

تطالعنا الصحف من حين الى آخر باحصائية عن عدد سكان العالم ، فهم قد بلغوا ٢,٥٠٠ مليون نسمة عام ١٩٥٠ ، أو هم قد بلغوا ٣٠٠٠ مليون نسمة عام ١٩٦٠ ، وقد يمر القارىء على مثل هذه الاحصائية مر الكرام ، وقد لا تعنى له شيئاً ، ولكن قارئا آخر قد يجد نفسه مضطرا للخوض فيها ، فهى فى الحقيقة مشكلة ، عندما يراجع بطاقة تموينه ، أو لا يجد لنفسه مكانا فى السيارة العامة ، وعندما تلاحقه الأبحاث والمقالات ، بل والقرارات السياسية الهامة من خطط التنمية او التعليم والخدمات .

فمسألة السكان فى الحقيقة هى مسألة حياة الناس على الأرض ، تجمعهم وتلم شملهم مجتمعات عدة ، يعيشون فيها معاً ، ويتزاوجون ويتناسلون ، ويكبرون ويتدرجون من المهد الى الصبا ، ومن الصبا الى الشباب ، ومن الشباب الى الكهولة والشيخوخة ، ومنهم من يتوفى ، ومنهم من يعمر

ويهرم . وهم فى هذا المجتمع خليط من ذكور واناث . من مختلف طوائف السن . مثل هذا المجتمع المكون من الذكور والاناث ، فى مختلف مراحل العمر ، والذى يعيش فى موطن معين يسمى سكاناً .

وهؤلاء السكان ، كالجسم العضوى المتحرك ، ينمو بقدوم وافدين جدد الى مسرح الحياة ، اعنى الميلاد ، ويدرج نفس السكان فى مراحل السن المختلفة ، فأطفــالهم يشبون ، وشبابهم يشيخون ، وهم فى جميــع المراحل يتعرضون للمنية ، فيتخطف الموت منهم فى كل مرحلة من مراحل السن من يتخطف ، وفى آخر كل عام نحسب عدد السكان ، نضيف اليه من ولد ونسقط منه من توفى . فاذا زادت المواليد على الوفيات كان السكان فى حالة زيادة أو نمو . واذا ظل العدد باقيا على حاله كان السكان فى حالة ثبات أو ركود ، واذا ربا عدد الوفيــات على عدد المواليد كان المجتمع فى حالة تدهور أو نقصان .

كل هذا اذا لم يفد الى المجتمع وافدون من الخارج ، أو اذا لم ينزح منه مهاجرون ، فنقول ان السكان يزيدون زيادة طبيعية أو ينقصون نقصانا طبيعيا ، أو هم ــ طبيعيا ــ راكدون .

أما اذا كان القطر يجتذب اليه مهاجرين فالزيادة لا تكون طبيعية فحسب ، بل ونتيجة الهجرة أو الوفود ، واذا كان هذا القطر يضيق بسكانه ويطردهم الى الخارج ، ويدفعهم

الى النزوح منه ، فالنقصان فى سكانه لا يكون طبيعيا ، بل نتيجة النزوح .

فالسكان اذن يزيدون بالمواليد وينقصون بالوفيات ، وهم فى حالة حركة مستمرة والا لكانوا كمجموعة التماثيل فى متحف الشمع ، فصغارهم يشبون ، وشبابهم يهرمون ، وهم يتزاوجون ويتناسلون ، ويفد اليهم اطفال جدد فى كل لحظة ، وفى كل لحظة أيضا يغادر هذا العالم من وافاه الأجل . وهذه الحركة المستمرة الدائبة التى تشبه النهر فى تدفقه هى ما نعبر عنه بتعاقب الأجيال . ويعبر عنها الباحثون تعبيرا رياضيا بنسب الفية ، اذ ينسبون عدد المواليد مثلا بنسبة الفية الى عدد السكان عامة ، وكذلك يفعلون عندما يحسبون نسب او معدلات الوفيات . وعندما يحسبون معدل الزيادة الطبيعية للسكان كل عام أو كل خمسة أو عشرة أعوام .

ولقد كان هذا الحساب أمرا ضروريا دائما . فكما أن رب الأسرة يحسب مقدار الطعام اللازم لعدد الأفواه التى يعولها ، أو يحسب عدد أطفاله عندما يقدم على شراء كسوة الشتاء لهم ، فان الدولة أو المجتمع لا بد لهما أن تعرف حساب السكان بجميع دقائقه باستمرار ، حتى تعرف مقدار التموين الذى يجب أن تعده لهم فى حالات الحرب أو الضرورة ، وحتى تحسب عدد الأسرة اللازمة التى يجب أن تعدها لتوفر طبيبا لكل الف او الفين أو أكثر أو اقل من

السكان حسب طاقتها فى أى فترة زمنية تضعها فى الخطة . وقبل أن تقدم ميزانية التعليم تعرف تماما عدد الأطفال الملتزمة بتعليمهم فى أى مرحلة من مراحل العلم وهكذا .

ان المجتمعات المتقدمة فى الوقت الحاضر ، التى تتولى فيها الدولة تخطيط الاقتصاد والتربية والتعليم والصحة والعلاج ، لا تسير خبط عشواء ، انما طبقا لخطط مدروسة ، وهذه الخطط ــ وهى اساساً لرفاهية السكان وازدهارهم الاقتصادى والاجتماعى ــ لا بد أن توضع على اسس احصائية دقيقة . فلا يكفى ان نعلم فى الوقت الحاضر عدد السكان الاجمالى فى أى قطر ، بل لا بد وان نعرف أيضا نسبة الأطفال فيه ، ونسبة الشبان والقادرين على العمل والانتاج ، ونسبة الشيوخ والعجزة أيضا . كما لا بد وان نعرف بدقة نسب النساء من كل فئة من هذه الفئات العامة ، فالأفكار المختلفة يختلف بعضها عن البعض الآخر فى نسب النساء العاملات ، وبذلك توضع أمام المسئولين من التخطيط الاقتصادى والاجتماعى للدولة صورة واضحة جلية للمجتمع ، فى حالتى سكونه وحركته ، فيقدر كم من المدارس نبنى للأطفال والشبان غير المنتجين ، ونعرف حجم القوى العاملة فى المجتمع ، ونسبة الشيوخ والعجزة غير القادرين على العمل ــ بحكم السن ــ فنفرد لهم قسطا من الميزانية فى بنود التأمينات الاجتماعية المختلفة .

ولقد كان الحكام قديما يهتمون باحصاء الشبان القادرين

على حمل السلاح فحسب ، أو احصاء ارباب الأسر لحملهم على تقديم ضرائب معينة للدولة فى أوقات أزماتها ، أو تقديم عدد معين من حاملى السلاح ، ومن هذا القبيل احصاء موسى عليه السلام لرؤساء الأسر فى التيه ، وتقديرات السكان التى كان يقوم بها المصريون القدماء ، وحكام مصر العربية .

السكان اذن هم ثروة الأمة البشرية ، لا يمكن أن نقارنهم بثروتها الطبيعية ، فلولا الناس ما جادت الأرض بخيراتها وما انتشر فيها العمران وما قامت مدنية أو حضارة . فالسكان هم اليد التى تعمر والتى تحرث الأرض وتدير المصانع وهم العقول التى تفكر وتبدع ، وهم القوة التى تبطش وترد كيد العدو . ولذلك فلا عجب أن ينشأ من العلوم ما يجعل السكان شغله الشاغل ، يحسب حركتهم ويحلل تركيبهم ويحصى عددهم ويستخرج من النسب والمعدلات ما يعين السياسى و لاقتصادى والاجتماعى ــ ــ الذى يتعامل بمادة السكان ــ على فهم وتصور وحل مشكلاتهم .

الاحصاء اذن ، واستخراج النسب والمعدلات ، للمواليد والوفيات وفئات السن والزيادة الطبيعية ، ونسب القطاعات القادرة على العمل والانجاب كل ذلك ضرورة لازمة لدراسة السكان ، ولم يعد أحد يقنع بالفاظ جوفاء ، فانتشار الوعى العلمى والثقافى ، بل واشتباك المصالح داخل الوطن الواحد

وفى اقطار العالم بعضها بالبعض الآخر جعل الناس لايفكرون الا بمنطق الأرقام . ولقد كان هذا مفهوما بالنسبة للمواطنين داخل قطر ما ، ولكنه فى عالم اليوم ، الذى انعدمت فيه المسافات ، واصبح الناس يتخاطبون ويتعارفون عبر موجات الأثير أصبح امرا ضروريا بالنسبة لكل مواطن يعيش فى هذا الكوكب .

فالأمم — وهى تقيس قوة بعضها بالنسبة للبعض الآخر — تهتم بمعرفة عدد السكان وتحليلهم فى أقطار العالم المختلفة . بل ان الأمة بعدد سكانها ، ليس هذا فحسب ، بل وبقية هذا العدد ، من حيث الصحة والثقافة والتقدم التكنولوجى والحضارى . والمهتمون بالعلوم السياسية يقيسون الأمم بهذا المقياس الدقيق ، فامة تعدادها عشرة ملايين نسمة ليست كامة تعدادها مائة مليون نسمة ، هذا أمر بديهى ، فمن الملايين العديدة — وطبقا لقوانين الاحتمالات الاحصائية — لا بد وأن يخرج عدد لا بأس به من النوابغ والمفكرين والعلماء والقادة ، وهناك نسبة احصائية معينة من هذه الملايين تكون القوى العاملة فى الحقل والمنجم والمصنع ، ومنها تستطيع الدولة أن تجند الجيش والأسطول والجو وهكذا .

ولكن هل المسالة عددية فحسب ؟ كلا . انما يقدر السكان ايضا بمقدار حيويتهم ونسبة الشبان والشابات والرجال والنساء العاملين فيهم ، ليس هذا فحسب ،

بل بعدد السنين التى يحتمل أن يعيشها هؤلاء العاملون ، ويضيفون خلالها مجهوداتهم الى الانتاج العام فى بلادهم ، فاذا كان عدد العاملين قليلا بالنسبة للسكان ، واذا كان أمل الحياة أمامهم ضيقا : كأن يتخطفهم الموت وهم فى ريعان الشباب أو فى مقتبل العمر ، كان مجموع انتاجهم للأمة قليلا . فطول أمد الحيـــاة ومتوسط العمر للفرد فى السكان هو بالاضافة الى عدد السكان ــ هو المقياس الصحيح لحيوية الأمة وانتاجها .

وجدير بنا أن نزيد هذه النقطة وضوحا ، فاذا كان هناك مثلا قطران ، أحدهما متقدم اجتماعيا واقتصاديا ، ينعم أهله بالرفاهية ويطول أمد أعمارهم ، ويبلغ متوسط السن فيهم ستين عاما وثانيهما متخلف اجتماعيا واقتصاديا ، تنتشر بينهم الأمراض ويقصر أمد اعمارهم ويبلغ متوسط السن فيهم ثلاثين عاما ، فاننا لا نتوقع أن يكون الجهـــد المبذول فى كل من القطرين متقاربا . فاذا كان متوسط سن العمل والانتاج ٢٠ عاماً ، فمعنى هذا أن كل فرد عامل فى المجتمع الأول المتقدم سيبذل لوطنه اربعين عاماً من الانتاج ، بينما لا يبذل الفرد العامل فى المجتمع الثانى المتخلف أكثر من عشر سنوات انتاج ، وتزداد شقة الاختلاف اتساعا اذا ضاعفنا هذا الفرق بمقدار عدد العاملين الفعليين ــ على فرض تساويهما عدداً ــ فكم من ملايين السنين تضيع لقصر أمد الحياة فى أمة متخلفة ، هذا دون حساب ما يكتسبه الفـــرد

من خبرة تتزايد مع مرور الأيام . وتتـــكدس مع خبرة مواطنيه ، تضاف الى رصيد الأمة فى الفكر والعمل .

مقدار قوة الأمة الحيوى اذن يقاس بعدد سكانها وبمقدار ما يتميزون به من حيوية ويعبر عن هذا بأمد الحيـــاة ، ومتوسط السن . فكل من أمد الحياة ومتوسط السن يعبر عن الحالة الصحية العامة السائدة فى الأمة .

د. وقد يتبادر الى الذهن علاقة عدد السكان بالمساحة ، فمن غير المعقول أن نقارن الولايات المتحدة بالبرتغال ، أو الاتحاد السوفيتى بهولنده . وهذه العلاقة هى التى تسمى بكثافة السكان ، وأبسط طرق حسابها هى قسمة عـــدد السكان على المساحة ، فيقال عندئذ ان كثافة السكان كذا نسمة فى الكيلومتر المربع أو الميل المربع (حسب وحـــدة المساحة) . والرأى السائد الآن أن تحسب هذه الكثافة بالنسبة للأرض المنتجة أو العامرة فعلا فى القطر .

وكثافة السكان فى القطر تعطى فكرة واضحة عن مقدار تكثف السكان أو تخلخلهم ، كثرتهم أو قلتهم بالنســـبة للمساحة المنتجة . فاذا كان عدد السكان أقل مما يحتاجه القطر لكى يعمل وينتج ويخرج خيراته قلنـــا انه مفتقر للسكان ، واذا كان هذا العدد أكثر مما يحتاجه القطر قلنا انه مزدحم بالسكان ، واذا كان هذا العدد مناسبا للقطر قلنا ان هذا القطر يسكنه العدد الأمثل من السكان .

غير أن هذا الازدحام بالسكان أو الافتقار اليهم ليست

سوى مسألة اعتبارية محضة لا تصدق الا على فترة معينة من الزمن ، وحالة خاصة من الحضارة المادية والمقدرة العلمية والفنية للسكان ، فاذا انتقل السكان من مرحلة حضارية الى أخرى ، أو اذا ازدادوا علماً وخبرة وتسلحوا بالتكنولوجيا ، ازدادت مقدرتهم على استخراج خيرات بيئتهم واستثمارها ، وارتفعت قدرتهم الانتاجية ، فاستطاعت الأرض أن تحمل عددا اكبر منهم وهكذا .

← فمثلا اذا كان الشعب يعيش على الصيد وجمع ثمار الغابة والتقاطها فالشخص الواحد يحتاج لكيلومتر مربع يجول فيه ، ولكنه اذا تحول الى الرعى فان الأرض تستطيع أن تتحمل من ٢٠ ــ ٤٠ شخصاً فى الكيلومتر المربع ، أما الأرض الزراعية فقد تصل كثافة السكان فيها الى ٤٠٠ فى الكيلومتر المربع (٨٠٠ فى الكيلومتر المربع فى مصر) ، واذا تكدس العمال فى المصانع ، فان الأرض تستطيع أن تحمل اكثر من ١٠٠٠ نسمة فى الكيلومتر المربع !

ـ طاقة الأرض اذن فى تحمل السكان ، أى فى مدهم بالطعام اللازم لهم ، تختلف باختلاف قدرة هؤلاء السكان على استغلال مصادر ثروتهم الطبيعية . فالفلاح الذى يزرع الأرض زراعة كثيفة ، ويجعلها تغل غلتين أو اكثر فى السنة ، يصبح قادرا على اعالة عدد اكبر من السكان من زميله الذى لا يزرع الا نخلة واحدة فى السنة ، وهذا أكثر قدرة من الزارع البدائى الذى ينتقل من قطعة ارض الى أخرى ، ومن

الرامى ، واما الذى يعيش عالة على البيئة ، يكتفى بجمع ثمار الأشجار أو بصيد الحيوان ، فانه ــ على قلة عدده ــ تضيق به الأرض وما رحبت .

قلنا ان الأمم تقاس بعدد سكانها وبمقدار ما يتمتع به هؤلاء السكان من صحة ولياقة ، مما يرفع من متوسط الأعمار . واطالة الأعمار معناها اضافة سنوات من الخبرة والكفاية فى حياة الفرد ، تتضاعف بعدد الأفراد فى سن العمل الذين يضمهم السكان .

ولا شك ــ اذا تساوت المساحة بين عدد من الدول ــ فأقواها هى أكثرها سكانا ، خصوصا اذا تساوى هؤلاء السكان فى مستوى الصحة ومتوسط العمر . والجدول الآتى يوضح هذه الحقيقة :

جدول (١)

مقارنة عدد السكان فى ثلاث دول متساوية المساحة ومقارنة المساحة فى ثلاث دول متساوية السكان

			ميل مربع		نسمة
(أ)	ايطاليا	مساحتها	١٢٠ر٠٠٠	وعدد سكانها	٤٩ر٢٣٠ر٠٠٠
	بولندة	مساحتها	١٢١ر٠٠٠	وعدد سكانها	٢٩ر٢٥٠ر٠٠٠
	العراق	مساحتها	١١٧ر٠٠٠	وعدد سكانها	٦ر٥٩٠ر٠٠٠
(ب)	الارجنتين	مساحتها	١ر٠٨٠ر٠٠٠	وعدد سكانها	٢٠ر٥٠٠ر٠٠٠
	برما	مساحتها	٢٦٢ر٠٠٠	وعدد سكانها	٢٠ر٥٠٠ر٠٠٠
	يوغوسلافيا	مساحتها	٩٦ر٠٠٠	وعدد سكانها	١٨ر٥٠٠ر٠٠٠

ولا تكمن قوة الدولة اذن فى مساحتها ، بل فى عدد سكانها ودرجة تكثفهم فيها ، ومقدرتهم على استغلال مواردها ، فالبرازيل أكبر مساحة من الولايات المتحدة ، ومع ذلك لا يسكنها الا ربع سكان الولايات المتحدة ، أو قدر سكان بريطانيا الصغيرة المساحة ، واكثر من هذا فان هذا العدد من السكان لا يساوى فى امكانياته ومقدراته الاقتصادية والانتاجية قدر سكان بريطانيا واستراليا وكندا شاسعتا المساحة ، لا يعمر كلا منهما الا ملايين قليلة (عشرة ملايين) ومن ثم كانتا مفتقرتين للسكان ، وقد اضطر هؤلاء السكان الى التركز فى نقاط محدودة ليحدثوا تكثفا خاصا يمكنهم من استغلال قسط محدود من البيئة استغلالا واسعا ويمكنهم من نشر الخدمات الضرورية للحضارة بينهم .

قلة السكان دون الحد الضرورى لاستغلال موارد البيئة كلها استغلالا كاملا عائق فى سبيل التقدم الاقتصادى ، كما أن ازدياد السكان الى درجة الازدحام والتضخم عائق أمام الدولة دون تحقيق التنمية الاقتصادية المطلوبة .

ولقد علل بعض المؤرخين انهيار بعض الدول قديما ، وسقوط بعض الامبراطوريات بقلة عدد السكان . فمثلا فقدت فينيقيا سيطرتها على تجارة البحر الأبيض المتوسط فى القرن الرابع قبل الميلاد ، لأنها لم تستطع أن تنافس القبائل اللاتينية فى عدد السكان اللازمين لتجنيد الرجال

للجيش والأسطول . كما انهارت الامبراطورية الرومانية امام البرابرة لانغماس الرومان فى اللهو وعزوفهم عن تكوين الأسَر ، وتناقص عددهم أيضا بفعل الأوبئة كالملاريا ، التى افقدتهم الحيوية الكافية لصد جحافل القبائل المتبربرة .
ولم تستطع هولندة فى القرن السادس عشر أن تبقى طويلا فى ميدان الاستعمار ، وانهارت امبراطوريتها الواسعة ، لأنها لم تستطع أن تقدم من الرجال للأساطيل ما يعتمد عليه امام غريمتها انجلترا ، وتفوق انجلترا فى عـــدد السكان على هولندة ، كما تداعت امبراطوريتا أســـبانيا والبرتغال فى امريكا اللاتينية لنفس السبب .

ان عدد السكان ــ اذا تساوت ظروف الصحة العامة ومتوسط الأعمار ــ عامل حاسم فى الحـــروب وفى الانتاج لا شك فيه ، حتى أن معظم الدول بدأت فى رسم سياسة سكانية لها ، وذلك بعد أن قدرت هذه الحقيقة حق قدرها فى مطلع هذا القرن . وكان الفيصل الهام فى هذه المسألة هو ايجاد توازن بين عدد السكان وبين الموارد الطبيعية ، وقد كانت كل من فرنسا وألمانيا وايطاليا والدول الاسكندينافية فى مقدمة الدول التى رسمت لها سياسات سكانية . وكان بعضها ــ مثل ألمانيا وايطاليا فى الثلاثينات ــ تريد أن تنشىء قوة حربية ضخمة تضغط على جيرانها وتوسع بها « مجالها الحيوى » ، أى تريد وقودا للمـــدافع ، بينما كان بعضها

الآخر مثل فرنسا والدول الاسكندينافية تريد ان تحافظ على مستوى سكانها وتحفظ نفسها من الانهيار السكانى .

ورغم هذا فلم تستطع فرنسا أن تعمـــل على زيادة المواليد وهى فى أمس الحاجة اليهم ، فلقــد ادت الحروب الطاحنة التى اشتركت فيها أعوام ١٨٧٠ ، ١٩١٤ ــ ١٩١٧ ، ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ الى القضاء على زهرة شباب فرنسا وبالتالى الى زهد الفرنسيين فى الانجاب من ناحية أخـــرى . اذ شعروا بانهم انما يلدون للمـــوت ولا ينجبون الا حصاد المدافع . ولعل هذا الانهيار السكانى أحــد العوامل التى ادت الى تصفية الامبراطورية الفرنسية بعد الحرب الثانية ، وان كانت هذه التصفية لم تتم دون مقاومة عنيدة . فلقد كانت صناعات فرنسا فى الداخــل ، والتزاماتها فى الخارج ــ وان خفت ــ تحتاج لليد العاملة ، فى الوقت الذى لا يصل فيه عدد المواليد الى ما يعادل عدد الوفيات ، اى فى الوقت الذى لا تستطيع فيه ــ الا بالكاد ــ تجديد أجيالها .

ولذلك لجأت فرنسا الى تعـــديل قوانين الهجرة بها تشجيعا لأبناء جاراتها على الهجرة ، فوفد عدد كبير منهم الى فرنسا ، واســـتطاع نحو مليون وربع منهم أن يكون عصب الصناعة الثقيلة والشاقة فيها ، مثل العمل فى المناجم والصناعات المعدنية ، ولولا هؤلاء لتوقفت أو تعطلت هذه

الصناعات ، فنصف سكان المناجم واكثر من ٨٠٪ من عمال البوتاس والبوكسيت والأسمنت كانوا أجانب . واخـذت فرنسا تعمل على امتصاص وفرنسة معظم الأجانب الشبان ، وكأنها ــ وقد عجزت من المحافظة على عدد سكانها طبيعيا بالتزاوج والانجاب ــ قد لجأت الى طـــريق الزيادة غير الطبيعية أى الى فتح ابوابها للهجرة .

الفصل الثانى

السكان ظاهرة اجتماعية

تحدثنا فى الفصل السابق عما نعنيه بالسكان ، وحركة السكان ، وقيمتهم واهميتهم فى الانتاج وفى ميزان القوى السياسية ./ وقد يتبــادر الى الذهن أن السكان ليسوا سوى مجرد أيد عاملة وافواه تلتهم الطعام . وقد ينزعج بعض الناس فى بعض المجتمعات من ازدياد تكاثر السكان فيدعو الى تحديد النسل باصدار القوانين . والواقع أن السكان سواء كانوا يزيدون بسرعة فائقة ويراد لهم أن يبطئوا فى هذه السرعة ، أو كانوا يزيدون ببطء ويراد لهم أن ينشطوا فى الانجــاب ، او كانوا محجمين عن الزواج والانسال ، فانهم فى ذلك كله لا يخضعــون لتشريع ، ولا يصدرون فى عاداتهم هذه عن قانون . وانما السكان — فى اى قطر من الأقطار ، وفى أى زمن من الأزمان لا يخضعون الا لشيء واحد هو العرف والعادات الاجتماعية والتقاليد ، وان خضعوا لقانون ، فانما يخضعون لقانون واحد ، هو قانون التطور الاجتماعى الذى يسرى فى المجتمع ويطوره ، كما يتطور الكائن الحى ، ببطء واصرار .

وكما يفعل الكائن الحى فى تطوره ، يتخلى عن الصفات الضارة التى تعرقل نموه ، ويكتسب الصفات الحسنة والتى تساعد على ترقيته ، ينتخب المجتمع فى تطوره من العادات والتقاليد الجديدة التى تساعد على تنميته وازدهاره ورخائه ، ويطرح جانبا تلك العادات والتقاليد التى تقعد به من اللحاق بركب المدنية والحضارة .

الظاهرات السكانية التى تعمل على حركة السكان ، من مواليد ووفيات ، وفئات السن التى ينقسم اليها السكان ، بل والهجرة سواء بالنزوح اى الخروج او الوفود كلها تتم فى اطارات اجتماعية ، بل هى صلب المجتمع فى حركته وحيويته . فالمجتمع الانسانى — فى أى قطر من الاقطار — لا يخضع للغريزة فى تكاثره ، ولا يترك أمره للطبيعة فى نهايته ، لا يقبل على الانجاب بالغريزة ولا يستسلم استسلاما سلبيا تاما لعوامل الطبيعة واعدائه الخارجيين كالحيوانات ، ولكنه يعيش فى مجتمع ، ينظم زواجه وعلاقاته العائلية ، بل ينظم له أحيانا علاقاته الزوجية ، ويحافظ على حياته بقدر ما يستطيع ، ويعمل المجتمع باستمرار ، عن طريق العرف والعادات والتقاليد على تحقيق هدف خاص له ، كثيرا ما يكون ملائما لمقتضيات البيئة .

ويتأثر المجتمع — فى تطوره — بظروف البيئة الطبيعية التى يعيش فيها ويتفاعل معها كما يتأثر بظروف اجتماعية خارجية ، كاحاطته بأعداء تقليديين ، أو شعوب معادية أو

لعرضه للغزو ، وبظروف اجتماعية داخلية من صنعه هو ، كالتطور الاقتصادى وارتفاع مستوى المعيشة وهبوط الوفيات ، أو النزوع الى الغزو والعدوان الخارجى . وهذا كله على سبيل المثال فقط لا الحصر .

هذه المؤثرات جميعا لا تلبث أن تنفذ فى ضمير المجتمع فيصوغها فى شكل قيم اخلاقية او عرف سائد او تقاليد اجتماعية تحمل طابع الالزام لكل فرد فى المجتمع .

فالمواليد مثلا ، ظاهرة أحيائية ، الحيوان يلد والانسان يلد ، انما الفرق بينهما شاسع ، فالانسان لا يلد — فى معظم الاحيان — الا نتيجة الزواج والطفل يولد فى فراش الزوجية ، وهذا الزواج نظام اجتماعى ، يحدده العرف والتقاليد وقد يأتى القانون أخيرا لينظمه . وتختلف الشعوب بعضها عن بعض فى درجة اقبالها على الزواج ، وفى تحديد سن الزواج ، وفى نظم الزواج من حيث عدد الزوجات . وكل هذه العوامل ذات أثر مباشر على المواليد كثرة وقلة . بعض الشعوب ، مثل الهنود ، يقبلون على الزواج المبكر ، وقد كان زواج الأطفال البنات فى الهند شائعا حتى وقت قريب ، ولا شك أن هذا يدعو الى اطالة فترة الانجاب لدى المرأة ، وكثرة المواليد ، وارتفاع معدل المرأة الواحدة من الولادات .

فمن المعروف أن المـرأة تستطيع الانجاب فيما بين ١٥ — ٤٥ (أو ٤٩) سنة ، فاذا تزوجت مبكرة ولم تستعمل

اى مانع للحمل ـ والنساء فى هذه الأقطار المقبلة على الزواج المبكر لا تعرف موانع الحمل ـ ولم تجهض نفسها ، فانها تستطيع أن تنجب ١٢ طفلا !

أما الشعوب التى تؤخر سن الزواج ، فانها فى الحقيقة تختصر الفترة التى تستطيع فيها المراة الانجاب ، وتختصر عدد الأطفـــال الذين يمكن أن يولدوا من ١٢ الى خمسة أطفال أو أقل . فمجرد تأخير سن الزواج عامل من عوامل ضبط النسل .

بل ان المراة تختلف فى درجة خصوبتها من سن الى آخر ، فهى أشد ما تكون خصبا ما بين ٢٥ ـ ٢٩ سنة ، واقل ما تكون خصبا بعد سن الأربعين .

وقد يتساءل بعض الناس ، هل هناك شعوب أعلى خصوبة من غيرها ؟ فى الواقع انه ليست هناك خصوبة أو عدم خصوبة ، ولكن هناك اقبـــال على الانجاب وتهيئة الفرص له ، وهناك اعراض عنه ، أو على الأقل حد منه . ففى فرموزه وسلفادور وبناما تنجب كل الف امراة فى سن الانجـــاب اكثر من ١٠٠ مولود ســـــنويا ، وفى شــــعوب يوغوسلافيا والبرتغال والولايات المتحدة تنجب كل الف امراة ما بين ٧٠ ـ ١٠٠ مولود سنويا ، وفى شعوب النرويج والدنمارك وبلجيكا لا تنجب كل ألف امـــراة اكثر من ٧٠ مولودا سنويا .

جدول رقم (٢)

نسبة الخصوبة لكل ١٠٠٠ امراة حسب فئات السن

لبعض الاقطار للمقارنة

فئات السن	الولايات المتحدة ١٩٥٠	فرنسا ١٩٥١	أستراليا ١٩٥١	اليابان ١٩٥٠	مصر ١٩٣٧
١٥-١٩	٧٩ر٤	٢٣	٣٨ر٢	١٠ر٧	٨٢
٢٠-٢٤	١٩٣ر٦	١٥٤	١٧٧ر٧	١٤١ر٠	٢٥٠ر٥
٢٥-٢٩	١٦٣ر٣	١٦٨ر٣	١٨٥ر١	٢١٦ر٤	٣٠١ر٨
٣٠-٣٤	١٠١ر٣	١٢٠ر٩	١٢٢ر٢	١٦١ر١	٢٦١ر٢
٣٥-٣٩	٥١ر٢	٦٣ر١	٦٥ر٩٥	٨٩ر٤	١٩٦ر٣
٤٠-٤٤	١٤ر٥	٢٢ر٥	٢٠ر٥	٢٨ر٧	٥٣ر٢
٤٥-٤٩	١٤ر٥	٢	١ر٦	١ر٦	٢٨ر٦
	٦٠٤ر٤	٥٥٣ر٨	٦١١ر٢	٦٤٨ر٩	١١٧٣ر٦

ان المراة الفرنسية ، حسب هذا الجدول ، تنجب فى المتوسط ثلاثة أطفال ، فى حين ان متوسط انجاب المراة المصرية ستة أطفال !

ومتوسط عدد الأطفال الذين تنجبهم المراة فى اى قطر من الأقطار لا علاقة له بما يسمى بخصوبة المراة ، فليس هناك شعب بطبيعته اشد خصبا من شعب . اذ أن الناس مخلوقات اجتماعية أولا وقبل كل شيء ، والمسالة لا تتعلق

بطبيعة المرأة ، تعلقها بطبيعـــة النظام الأجتماعى وعادات الزواج والمعاشرة الزوجية ، فكلما كان الزواج مبكرا ، كلما طالت فترة المعاشرة الزوجية ، كما أن الطلاق والموت قد ينهي المعاشرة بالنسبة لأحدهما ، ما لم يحدث اعادة زواج . بل ان اعادة الزواج قد يكون سببا في ارتفاع نسبة الزواج ، كما يحدث فى مصر . وكلما تأخـــر سن الزواج او قل الاقبال عليه كلما انخفضت نسبة الانجاب .

ونورد فيما يلى احصائية تبين مدي ارتباط الانجاب بسن الزواج ، في كل من مصر (حيث الاقبال على الزواج المبكر) والسويد حيث لا تقبل الفتيات علي الزواج المبكر . فاذا كان عدد النساء ما بين ١٥ ــ ١٩ سنة ١٢٤٠ فتاة في كل من مصر والسويد ، فان عدد المتزوجات في مصر يبلغن ٢٩١ فتاة منهن ، بينما لا تتزوج من مثل هذا العدد في السويد الا ٣٤ فتاة ، ولذلك تنجب هـذه المجموعة ١١٤ طفلا فى مصر ، وتنجب مثيلتها في السويد ١٣ طفلا فقط ; وان من مجموع ٧٥٦٠ امرأة في سن الحمل والانجاب فى كل من مصر والسويد ، تتزوج ٥٤٧١ امرأة فى مصر و ٤٣٤٢ امرأة فى السويد ، وتنجب المصريات ٧٣٩ طفلا بينما لا تنجب نظيراتهن من السويديات سوى ٤٩٦ طفلا .

جدول رقم (٣)

الانجاب وسن الزواج فى مصر والسويد (١٩٤٥)

فئات السن	عدد النساء	عدد النساء المتزوجات		عدد المواليد فى فراش الزوجية	
		فى مصر	فى السويد	فى مصر	فى السويد
١٥ــ١٩	١٢٤٠	٢٩١	٣٤	١١٤	١٣
٢٠ــ٢٤	١١٩٠	١٩٣٠	٤٠٠	٣١٧	٧٥
٢٥ــ٢٩	١١٤٠		٩٥١		١٨٩
٣٠ــ٣٤	١٠٩٠	١٨٦٧	٨٢٧	٣١٩	١١٩
٣٥ــ٣٩	١٠٣٠		٧٩		٧١
٤٠ــ٤٤	٩٧٠	١٣٨٣	٧١١	٢٩	٢٦
٤٥ــ٤٩	٩٠٠		٦٢٩		٣
	٧٥٦٠	٥٤٧١	٤٣٤٢	٧٣٩	٤٩٦

سن الزواج اذن مسألة اجتماعية تؤثر فى عدد المواليد ، كما أن المعاشرة الزوجية وطول فترتها أو قصرها ذات اثر مباشر فى هذا العدد ، وهنا نشير الى بعض العادات السائدة فى المجتمعات البدائية فى كل من افريقية المدارية وآسيا الموسمية ، فبعض هذه القبائل يتدخل عرفها الاجتماعى فى عادات المعاشرة الزوجية ، فمثلا تحرم الاتصال الجنسى بين الزوجين مدة عامين بعد انجاب الطفل ، أو تحتم أن يوضع

الطفل فى كوخ والدى الزوجـة ، حيث تظل الأم فى بيت والديها فترة عامين ، يحرم اثناءهما اتصـالها بزوجها ، ويتفنن المجتمع البدائى فى وضع اصناف من المحرمات أمام الزوجين خلال فترة زواجهما ، وهـذه المحرمات جميعا تهدف الى الحد من زيادة السكان فى مجتمعات تجد الطعام امامها محدودا .

وبعض المجتمعات ـ رغبة منها فى تحديد النسل حتى دون أن تدرى ـ تضع العراقيـل امام الزواج ، وترهق طالبيه من الرجال بمطالب شـتى ، ومن ثم لا يستطيع الزواج الا كبار السن من الرجال ، وقد ثبت من الأبحاث التى أجريت فى المجتمعات التى تسمح بتعدد الزوجات ، انها اذا لم تكن فى حالة حرب ، أو اذا لم تمر بفترة تعقب حربا ، أى اذا كانت ظروف السلم سائدة ، فانها تكون اقل انجابا من المجتمعات التى لا تسمح بتعدد الزوجات .

وقد يبدو هـذا لأول وهلة غريبا ، ولكن لا غرابة فى ذلك اذا عرفنا أن اقل من نصف المواليد بقليل عادة من النساء (٤٨ر٥ ٪) ، وأن الرجال والنساء فى سن العمل والانجاب ـ فى أى مجتمع عادى متسـاوون فى العدد ، ولذلك فمن الطبيعى جدا ان يكون لكل رجل امراة واحدة ،

فاذا زاد بعض الرجال انصبتهم ، وتزوجوا أكثر من واحدة ، فمعنى هذا أن كلا منهم حرم رجلا آخر أو اكثر من امراة كان يريد زواجها ، فاذا اضـفنا الى هذا انه

لا يستطيع أن يجمع بين أكثر من زوجة الا من يستطيع الانفاق عليهن ، وهؤلاء يكونون عادة من المتقدمين فى السن ، لأدركنا أنه فى مثل هذه المجتمعات ، يجمع كل من الكهول والشيوخ عددا كبيرا من النساء ، ويحرم الشبان ـ وهم الأقدر على المباشرة الزوجية ـ من حق الزواج والانجاب ، ومن ثم هبوط عدد المواليد فى هذه المجتمعات .

وتحرم بعض القبائل زواج الأرامل ، وبذلك تخرج الأرملة من عداد النساء القادرات على الانجاب ، كما أن بعض القبائل الأخرى تبيح تعدد الأزواج ، وهذه وسيلة مباشرة لتحديد النسل ، لجأ اليها مجتمع يخشى من كثرة النسل وقلة الطعام .

واذا كانت هناك مجتمعات تشجع الزواج المبكر واخرى لا تشجعه ، او كان بعضها ينظر الى الزواج نظرة ارتياح ، فهناك مجتمعات اخرى يسود فيها نظام الرهبنة ، وهذا من شأنه أن يسحب من رصيد الرجال والنساء فى سن العمل والزواج والانجاب نسبة معينة ، تتعطل عن القيام بمهمة الانجاب ، فيؤثر هذا تأثيرا مباشرا على عدد المواليد ، ومن ثم على حجم السكان . ومن هذه المجتمعات مجتمع التبيت الذى تنتشر فيه الرهبنة ، ولكن الى الحد الذى يسمح بتجدد جيل السكان باستمرار ، ومن ثم لا يزيد سكان التبت ، ولا ينقصون عن حد معين . وقد لاحظ أحد المؤرخين « لوسيان فيفر » أن أهل الدول الزراعية

المستقرة فى الصين والهند والشرق الأدنى وأوروبا ، كانوا دائما يتعرضون لغزوات الرعاة التى تكتسح أمامها المدن والقرى وتغطى تلك الأقطار المتمدينة بجحافل البرابرة من الهون والتتـــار . ولاحظ أن ذلك الأمر الذى كان يتكرر باستمرار فى فترات متعاقبة من التاريخ ، قد توقف منذ القرن الخامس عشر تقريبا . وأتى بتفسير سكانى لهذا ، فلقد كانت الشعوب التركية التتارية مقبلة بطبيعتها على الانجاب والتكاثر ، وهى تعيش فى بيئة رعوية تعتمد على قدر محدود من المطر لكى ينمو الزرع والكلأ ، فترعى قطعان المــاشية والخيول ، واذا قل المطر — وهو يقل مدة كل بضع سنين — عن الحد اللازم لنمو مساحات الكلأ الضرورية لقطعانها ، نفقت الماشية وشعر السكان بوطأة الجــوع ، فيستنفرون جموعهم ، ويهجمون على مراكز المدنيـــة الزراعية المحيطة بهم ، طلبا للطعام .

ولقد كانت بلادهم مسرحا أيضا لتنــافس المسيحية والاسلام والبوذية (بين القرنين العاشر والخامس عشر) ، فلما اعتنق البوذية عدد كبير من المغول والتتــار ، قلت هجماتهم ، لأنهم — وقد أقبل قدر كبير منهم على الرهبنة البوذية — لم يتكاثروا تكاثرا خطرا يدفعهم الى الخروج فى غزواتهم التقليدية .

ذكرنا آنفا عدد المواليـــد فى اى قطر أو مجتمع يتأثر بالعوامل الاجتماعية العـــديدة التى تؤثر فى الزواج وفى

د

العلاقات الزوجية بين الأزواج . ولقد لوحظ أنه أثناء الأزمات الاقتصادية العنيفة أو الاضطرابات السياسية وفقدان الشعور بالأمن ، وأثناء الحروب الكبرى يقل الاقبال على الزواج ويقل الاقبال على الإنجاب أى تقل الولادات بين المتزوجين ، بينما فى فترات الرخاء الاقتصادى وفى أيام الهدوء السياسى والسلم ، وعندما يشعر الناس بالأمن والرفاهية يقبلون على الزواج ، ويقبلون على الانجاب وترتفع معدلات المواليد . فعندما عاد المحاربون من ميادين القتال بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، ارتفع فجأة عدد المواليد فى الأقطار المتحاربة .

ويؤثر فى المواليد أيضا حالة المجتمع عامة ، ان كان حضريا أو ريفيا ،ومستوى الأزواج من حيث درجة الثقافة والمهنة والدخل . بل والعقيدة الدينية التى يعتنقها الأزواج . ونظرة المجتمعات المختلفة الى الطفل .

فاذا نظرنا الى المجتمع الريفى لوجدناه أكثر انجابا من المجتمع الحضرى ، فالفلاح ، خصوصا فى المجتمعات الزراعية التقليدية ينظر الى الطفل بوصفه يد عاملة رخيصة لا تكلفه الكثير ، يساعد والده فى أعمال الحقل الصغيرة ، ولا يلبث أن يشاركه عمله مبكرا وهو صبى ، بينما هو فى المدينة عبء اقتصادى ، لا بد له من قسط من التربية والتعليم والتأهيل لكى يستطيع أن يزاول عملا ، خصوصا بعد ادخال قوانين العمل التى تحرم على أصحاب العمل استخدام صغار السن

دون الخامسة عشرة من عمرهم . وبعد سن قوانين الالزام فى التعليم . ولذلك فاننا نلاحظ أن الفلاحين عامة أكثر انجابا من العمال ، وبمعنى آخر أن سكان الريف عامة أكثر انجابا من سكان الحضر أو المدن عامة .

ودرجة الثقافة والمهنة والدخل عوامل اجتماعية واقتصادية متشابكة ، تؤثر جميعا فى وجهة نظر الأزواج نحو الانجاب ، وغالبا ما يكون الأزواج الأرقى ثقافة هم الذين يحتلون — بحكم درجة تعليمهم — أرقى المناصب ، أو يعملون بالمهن الراقية ، وبالتالى هم الذين يحصلون — غالبا — على أعلى الدخول .

والمشاهد أنه كلما ارتفع نصيب الفرد من الثقافة والتعليم ، كلما كان أكثر شعورا بمسئوليته الاجتماعية والاقتصادية نحو أطفاله ، وكلما كان أشد عناية بهم ، من حيث المسكن والمأكل والملبس ، وأكثر انفاقا عليهم لكى يهيىء لهم حياة أفضل ، فتطول فترة تربيتهم وتعليمهم وتأهيلهم لهذه الحياة . ومن ثم كان الطفل بالنسبة لتلك الفئات من المجتمع — عبئا اقتصاديا . ومن ثم أيضا كانت أقل فئات المجتمع انجاباً . وأكثرها اقبالا على موانع الحمل .

فاذا أضفنا الى هذا أن أولئك الأزواج والزوجات أيضا — فى كثير من الحالات — الذين ينتمون الى هذه الفئات الاجتماعية (صاحبة الحظ الأوفر من الثقافة والتعليم والدخل والتى تحتل الدرجات الأعلى فى المهن والوظائف)

لا يقبلون على الزواج الا متأخرين ، لأدركنا أن الظـروف الاجتماعية والاقتصادية قد تضافرت للحد من نسلهم .

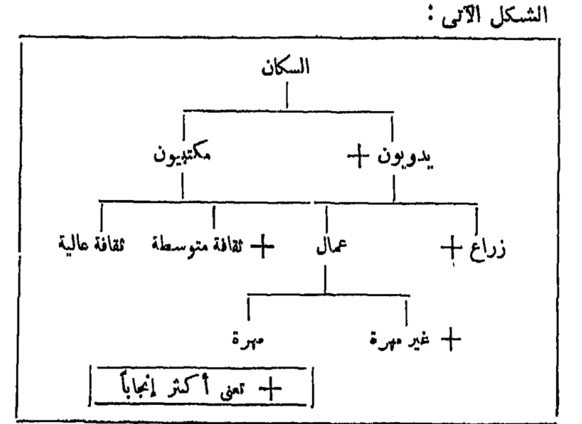
فكلما ارتفعت الثقافة والتعليم فى فئة اجتماعية ، كلما قل نسـلها .

وكلما ارتفع المستوى الاجتماعى كلما قل النسل ؛

وكلما كانت الزوجة متعلمة ، وعلى قـدر قسطها من التعليم ، كلما قل النسل .

والمرأة العاملة أقل انجابا من المرأة غير العاملة .

ويمكن أن نضع نتائج الأبحاث السكانية العديدة التى أجريت فى كثير من أقطار العالم والمتعلقة بمعدلات المواليد ، وعلاقتهـا بالمستويات الثقافية والاقتصادية للأزواج فى الشكل الآتى :



فاليدويون أكثر انجابا من المكتبيين ، والفلاحون الذين يعملون بأيديهم أكثر انجابا من العمال ، وغـــير المهرة بين العمال أكثر انجابا من العمال المهرة . ومن بين المكتبيين نرى أن أصحاب الثقافة المتوسطة أكثر انجابا من أصحاب الثقافة العالية .

وفى داخل هذا الاطار الهام يتدخل عاملان ، عامل عام يتصل بالعقيدة السائدة فى الأمة ، وآخر خاص بالمرأة . أما بالنسبة للعقيدة فقد لوحظ فى فلسطين قبل نكبتها مثلا ، أن المسلمين عامة كانوا أكثر انجابا من المسيحيين (ومثل هذه الملاحظة تلاحظ فى سوريا ولبنان ومصر) والعــرب (أى المسلمين والمسيحيين معاً) أكثر انجابا من اليهود ، وفى الولايات المتحدة لوحظ أن الكاثوليك أكثر انجــابا من البروتستانت .

والسبب فى هـــذه الفوارق أن بعض رجال الدين أو العرف السائد لدى اتباع بعض الديانات قد وقفوا موقفا خاصا من مسائل تحديد النسل ، فالكنيسة الكاثوليكية لا ترى تدخل الأزواج فى منع الحمل ، وترى ان منع الحمل يجب أن يكون عن طريق الامتناع عن المعاشرة الزوجية ، أو ممارستها فى الفترات التى يؤمن فيها الحمل . أى التى لا يحتمل أن تحمل أثناءها الزوجة . بينمــا اجاز رجال المذهب البروتستانتى استخدام موانع الحمل .

اما بالنسبة لتفاوت حجم الأسرة لدى المسلمين والمسيحيين فى الوطن العربى ، فربما عللت بأن الاسلام ، أو رجال الدين الاسلامى لم يحرموا استخدام موانع الحمل ، أو الحيطة دون الحمل ، تحريما قاطعاً . بل لقد افتى احدهم ، ردا على سؤال مباشر فى هذا الموضوع ، بانه يجوز منع الحمل فى حالات ثلاث : اذا خشى على المال ، أو على الجمال ، او من كثرة العيال وقلة المال ، واعتمد على الامام الغزالى فى هذه الفتوى .

ويخلص من الدراسات السكانية المختلفة ، ان ضبط النسل أو تنظيم الأسرة فى الوقت الحاضر يتناسب مع وضع الأسرة الاجتماعى والثقافى ، والمسألة متعلقة بدرجة الوعى التى يتمتع بها الأزواج ، فالأسر فى المدينة ، ترنو باستمرار الى مستوى معيشى أرقى ، وتعيش عادة فى شقق محدودة الحجرات ، وتحتاج الى متطلبات عديدة ، فاذا كان الزوجان فى مستوى ثقافى واجتماعى معين ، فانهما يجهدان باستمرار على المحافظة على هذا المستوى ، ان لم يعملا على رفعه ، ويتجهان عادة الى اقتناء ما يسهل حياتهما فى المنزل من ادوات مختلفة ، فاذا انجبا عملا على ان يحصل اولادهما على أفضل الفرص المتاحة لتعليمهم وتثقيفهم واعدادهم للحياة . ومن ثم كان الوعى اولا هو الحافز على ضبط النسل .

اما الحافز الثانى فهو القدرة على استخدام الوسائل

المؤدية فعلا الى ضبط النسل ، وهذا فى حد ذاته يتطلب قسطا من الثقافة لدى الأزواج . فكثير من الأمهات ــ حتى فى أعماق الريف ــ تتطلعن الى فترة راحة ، من كثرة الحمل والولادة ، وقد يؤدى جهلهن بأساليب منع الحمل الى نتائج مؤسفة ، تودى بحياتهن أو تعرضهن الى خطر جسيم .

واخيرا ــ الى جانب الوعى والمقدرة ــ لا بد من الارادة ، اى ان يكون لدى الأزواج من قوة الارادة ما يجعلهما يخططان للمستقبل ، وينفذان ما يريدان فى مجال تنظيم الأسرة . ومن ثم فان المجتمعات الأرقى والأكثر ثقافة وتحضرا قد عرفت كيف تحدد نسلها قبل غيرها ، وعندما تتطور الأمة ، وتمر من المرحلة الريفية الى المرحلة الحضرية ، ومن المرحلة اللاعلمية الى المرحلة العلمية ، فانها تصل الى ضبط النسل وتحديده .

ولكن لماذا يضبط الأزواج نسلهم ؟

للاجابة على ذلك لا بد ان نربط بين ضبط النسل وضبط الوفيات ، وسنتحدث عن ذلك تفصيلا فى فصل قادم ، ولكننا هنا نلاحظ أن الشعوب التى ترتفع فيها نسب الوفيات هى التى ترتفع فيها نسب المواليد ، بمعنى آخر أن الانسان ــ شأنه فى ذلك شأن بقية الأحياء ــ لا بد له من المحافظة على نوعه ، وهو مدفوع الى ذلك بغريزته وارادته . فاذا كان الأعداء الخارجيون كثيرين ، عمد الى كثرة الانجاب

ليقاوم هؤلاء الأعداء ، وكما أن الحيوان الذى يحاط بأعداء خارجيين عديدين فى البيئة ، يزيد من نسله ، ليزداد قدرة فى معركة البقاء ، ولكيلا ينقرض ، اذ يأتى الأعداء الخارجيون (كآكلات اللحوم بالنسبة لآكلات الأعشاب) على قدر من النسل ، أو من السكان ، فيبقى فى النهاية قدر ، يحمل رسالة النوع ويتزاوج ويتناسل ويجدد الأجيال ، وبذلك يحفظ النوع من الانقراض .

كذلك الانسان أو المجتمع البشرى ، اذا كانت بيئة غاصة بالأعداء يكمن الموت فى كل منعطف فيها ، وتنتشر فيهـا الأمراض ، وتزداد الأوبئة ، فلا بد له لكى يحافظ على نفسه من الانقراض أن يلجأ الى كثرة النسل . حتى اذا مات من مات ، أو اذا حصدت الأوبئة من تحصد يبقى فى النهاية عدد يتزاوج ويتكاثر ويحافظ على المجتمع ويحميه من الانقراض .

فكثرة المواليد ـ فى الأصل ـ نتيجة حتمية لكثرة الوفيات . وهى نتيجة لا بد منها للمحافظة على النوع . ولذلك فاننا نلاحظ ان المجتمعات التى حصنت نفسها ، وقضت على الأوبئة ، وحدت من خطورة الأمراض ، وارتفع فيها مستوى العلاج ، أى عملت على هبوط معدلات الوفيات ، انتشرت فيها عادات ونظم تحديد النسل . بمعنى آخر كان ضبط الوفيات مؤديا الى ضبط النسل .

ومنطق ذلك بسيط ، فاذا كانت هنـاك اسرة تنجب عشرة اطفال فى فترة الانجاب كلها ، وذلك فى محيط تكثر فيه الأوبئة والأمراض ولا يصل اليه الطب أو العلاج ، فانه فى النهاية يبقى من هؤلاء الأطفال العشرة ، خمسة أو أربعة ، منهم بنتان تتزوجان وتواصلان عملية حفظ النوع . وليس من المعقول أن تطالب اسرة ، كلما ولد لها طفل خطفه الموت ، وان لم يخطفه وشيكا عاشت فى خوف من أن يموت ، ان تعمل على تحديد النسـل .

ان المنية لم تعد ــ كما قال الشاعر العربى القديم ــ «خبط عشواء من تُصيب تُمته ، ومن تترك يعمر فيهرم » . انما الموت ــ مثل الولادة ــ ظاهرة اجتماعية بجانب كونه ظاهرة بيولوجية . واذا فحصنا معدلات الوفيات فى الأقطار المختلفة ، وقارناها بمعدلات مواليدها ، لوجدنا أن المواليد المرتفعة تسود الأقطار ــ التى تسجل معدلات وفيـــات مرتفعة .

جدول رقم (٣)

مقارنة المواليد والوفيات فى الألف عام ١٩٤٦ – ١٩٥٠

	مواليد	وفيات
النمسا	١٦و٦	١٤و٦
نيوزيلنده	٢٥و٣	٩و٣
الولايات المتحدة	٢٤و١	٩و٩
انجلترة	١٨و٠	١١و٧
فرنسا	٢٠و٩	١٣و١
ايطاليا	٢١و١	١٠و٨
رومانيا	٢٤و٦	٢٠و٠
الهند	٢٦و٧	١٧و٦
مصر	٤٣و٧	٢٢و٢
الجزائر	٤٢و٣	٣١و١

فالأمم المختلفة ليست متساوية أمام الموت ، فحيث الغذاء الكافى ، والصحة الجيدة ، والعلاج المتوفر ، وبعبارة أخرى حيث مستوى المعيشة رفيع ، فان معدلات الوفيات تكون منخفضة ، والعكس صحيح . فاذا كانت معدلات الوفيات مختلفة ، فلا بد وأن مستوى المعيشة منخفض ، ومعنى ذلك الغذاء الذى يسمن ولا يغنى من جوع ، والصحة المعتلة والعلاج العسير المنال . وهذا يفسر ارتفاع معدلات

الوفيات التى تصل الى ٢٣ فى الألف فى الهند ، والتى تهبط الى ٩ فى الألف فى نيوزيلنده وهولنده !

***

يولد الانسان ، ومن الممكن أن يصل الى سن الثمانين ، وليس من المستبعد ان يصل الى المائة سنة . ولكن هذا الانسان لا يولد وحيدا ، بل هو فرد ينتمى الى مجتمع معين ، ويعيش فى بيئة معينة ، وينسب الى طائفة معينة فى المجتمع الذى يعيش فيه ، وقد يكتسب قدرا معينا من الثقافة ، ويقوم بعمل معين ، ثم هو أولا وقبل كل شىء ذكرا كان أو انثى قد يعيش الى عمر معين ، فهو فى اى لحظة اما طفل أو صبى أو شاب أو شيخ . وكل ظرف من هذه الظروف يؤثر فى عمره واحتمالات حياته أو وفاته .

وحياة الانسان تبدأ فى رحم امه جنينا ، وعلى قدر صحة الأم أو الوالدين تمنح فرصة الحياة لهذا الجنين ، فاذا كان احدهما مصابا بمرض تناسلى مثلا ، أو يحمل وراثة خبيثة فى الدم ، ضاقت فرصة الحياة أمام الجنين ، وكثر الاجهاض . وهناك بعض القبائل البدائية التى لم تحصن ضد الأمراض التناسلية انقرضت تماما بعد انتشار هذه الأمراض فيها . والأمم البدوية التى لا تعرف الاستقرار ، تقل امام أطفالها فرص الحياة ، كما يكثر الاجهاض بين نسائها .

ان طفلا من كل خمسة يموت قبل أن يرى نور الدنيا ، وعددا آخر من الأطفال يموتون قبل أن يتموا السنة الأولى ، كما يموت عدد آخر قبل أن يتم الخامسة من عمره . وهكذا يظل الموت يتخطف ابناء الجيل ، سنة بعـــد اخرى حتى لا يبقى الا القليل الذى يعمر ويصل الى أرذل العمر .

وقد بينا ان احتمالات الوفاة أو التعمير تتوقف على عوامل كثيرة ، منها ما يتعلق بصحة الأم ومنهـا ما يتعلق بنوعه ذكراً كان أم انثى ، فالفرص امام الاناث اوسع من فرص الذكور لكى يعشن ويتخطين أحرج فترات العمر وهى السنوات الخمس الأولى . ووفيات الأطفال الذكور أعلى من وفيات الأطفال الاناث فى هذه الفترة ، كما أن وفيات الذكور ــ بعد أن يبلغوا مرحلة الرجولة والكهولة ــ أعلى من وفيات الاناث .

وتتأثر معدلات الوفيات ايضا ، أو بعبارة أخرى فرص الحياة بالبيئة الاجتماعية التى يعيش فيهـا الشخص . بأسلوب حياته ونظام طعامه وشرابه وبالمهنة التى يمتهنها ومقدار دخله ، اى بمؤثرات مستوى معيشته وثقافته .

فهناك اخطار تتعلق بالمهنة ، يتعرض لها ارباب المهنة أو الحرفة الواحدة ، مثل الأخطار التى يتعرض لها عمال المناجم والمحاجر وغيرهم . واذا فحصنا احصائيات الوفيات طبقا للسن ، والمهنة أو المستوى الاجتماعى ، لوجدنا ارتباطا كبيرا بين المستوى الاجتماعي (وما يعنيه من مســتوى ثقافى

ومقدرة اقتصادية) وبين معدلات الوفيات . وليس هذا بمستغرب ، فالبيئة الصالحة ، ـ حيث ينال الفرد نصيبه من الغذاء الجيد ، والمسكن الصحي ـ ، تمنح صاحبها فرصا افضل للحياة ، بل ان مقدرته الاقتصادية تتيح له علاج نفسه أو ذويه اذا الم به أو بهم مرض . وقد حلت الدولة فى المجتمعات الاشتراكية محل الأفراد فى الوفاء بهذه الالتزامات .

وهناك وفيات نستطيع أن نسميها وفيات اجتماعية ، اذ انها نتيجة مستويات المعيشة المنخفضة والغذاء الناقص والمسكن غير الصحى ، مثل الوفيات بسبب أمراض السل مثلا . وهي التى يسأل عنها المستوى الثقافى والاقتصادى السائد فى المجتمع ، والموت المبكر ـ بدون شك ـ مسئولية المجتمع كله .

والاحصائية الآتية تبين العلاقة بين معدلات الوفيات وبين البيئة الاجتماعية أو المستوى الاجتماعى فى باريس ، ومنها يتضح أن فى منتصف القرن الماضى كانت الهوة واسعة بين الأحياء الراقية وبين الأحياء الفقيرة ، بحيث كان هناك مقداره ١٠,٥ فى الألف بين الأثرياء والفقراء . وقد ظل هذا الفرق يتناقص حتى أصبح فى حوالي ١,٥ فى الألف عام ١٩٤٦ ، ولا شك أن هذا يدل على ارتقاء المجتمع عامة وعلى أن الفقراء قد حصلوا على فرص من الحياة تقرب بينهم وبين الأثرياء .

جدول رقم (٤)

العلاقة بين معدلات الوفيات والمستوى الاجتماعى فى باريس

الحى	معدلات الوفيات العامة		
	١٨٩١	١٩٣٦	١٩٤٦
أحياء راقية	١٥٫٨	١٠٫٤	١٠٫٤
« متوسطة	٢١٫٩	١٢٫٩	١١٫٣
« فقيرة	٢٥٫٣	١٣٫٤	١١٫٥
باريس عامة	٢٢٫٣	١٢٫٢	١١٫٢

وقد نشر السجل العام فى انجلترا وويلز احصائية للنسب المئوية للوفيات موزعة على المهن المختلفة ، لفئات السن التى تقع بين ٢٠ ــ ٦٤ سنة نلخصها فيما يلى :

جدول رقم (٥)

النسب المئوية للوفيات على المهن المختلفة فى انجلترا وويلز

	١٩٢١ ١٩٢٣	١٩٣٠ ١٩٣٢	١٩٥٠
١ ــ المهن الحــرة والراقية والمستويات الاجتماعية العليا .	٨٢	٩٠	٩٧
٢ ــ الزراع والتجار والمستويات الوسطى	٩٣	٩٤	٨٦
٣ ــ الصناع المهرة والفنيون والموظفون	٩٤	٩٧	١٠٢
٤ ــ العمال غير الفنيين	٩٩	١٠٢	٩٤
٥ ــ العمال اليدويون	١٢١	١١١	١١٨
١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

وإذا كانت البيئة الاجتماعية قد أثرت فى معــدلات الوفيات العامة ، فانها أشد وضوحا فى معدلات وفيات الأطفال ، فوفيــات الأطفال نتيجة مباشرة لحالة المسكن ومستوى الوالدين الاجتماعى والثقافى . وأمراض الأطفال ولا سيما النزلات المعوية قدتكون نتيجة ظروف المسكن السيئة وسوء التغذية ، ولكنها أكثر من هذا نتيجة جهل الأمهات بأصول رعاية الطفل وبمبادىء الصحة العامة . ومن ثم كان ارتفاع معدل وفيات الأطفال فى الأحياء الفقيرة انعكاساً لمستوى المعيشة وهبوط القدرة الاقتصادية من ناحية ، ولجهل الأمهات من ناحية أخرى .

جدول رقم (٦)

العلاقة بين معدلات وفيات الأطفال والمستوى الاجتماعى فى باريس

الحى	١٨٩١	١٩٣٦	١٩٥١	١٩٥٦
الأحياء الراقية	٩١٫٩	٤٧٫٢	٢٤٫١	٢٫٢
« المتوسطة	١٣٥٫٣	٦١٫٧	٣٦٫٥	٢٨٫٢
« الفقيرة	١٥٧٫٢	٧٢٫٢	٣٧٫٢	٢٣٫٩
باريس كلها	١٣٦٫٢	٦٣٫٢	٣٤٫٤	٢٥٫٢

لقد انخفضت معدلات الوفيات فى الدول السابقة فى مضمار الحضارة والتقدم منذ مائة وخمسين عاماً انخفاضا لم تشهد له البشرية مثيــلا من قبل ، فطال أمد الحياة

أمام الفرد المتمتع بنتائج علوم الطب والوقاية الصحية ، والمستوى الاقتصادى المرتفع ، حتى انه لتقدر هذه الزيادة فى الولايات المتحدة الأمريكية ــ وهى ليست من اولى الدول فى التقدم السكانى ــ من عام ١٩٠٠ ــ ١٩٥٢ بنحو ١٢ عاماً (كان الفـــرد الأمريكى يامل فى ان يعيش ٥٧ر٦ سنة ، فاصبح بعد نصف قرن يأمل فى أن يعيش ٦٩,٧ سنة !) . وهذا معناه اضافة سنوات عديدة من الجهد والعمل الى الانتاج القومى .

ولا ريب أن العلم الحديث قد تقدم تقدما كبيرا فى القضاء على كثير من الأوبئة ، فلم نعد نسمع اليوم عن الطواعين التى كانت تكتسح العالم شرقا وغربا وتحصد الناس حصـــدا وتنشر الخراب والدمار أينـــما حلت ، ولم نعد نسمع كذلك عن وباء الجدرى أو الكوليرا (الا فى حالات نادرة لظروف خاصة لا تتكرر) . وحصرت أمراض الملاريا والتيفوس فى اضيق الحدود . ولا شك أن هذا من نعم الطب الوقائى . غير أن تقدم الطب كان أروع فى القضاء على أمراض الأطفال ، حيث اكتشفت الأمصال الواقية ضد أمراض كانت تفتـــك بالأطفال فتكا ، فالطفل فى مصر مثلا منذ عشرين عاما كان يطعم ضد الجدرى فحسب ، فأصبح يطعم أيضـــا ضد الدفتريا والسعال الديكى ، ومنذ عام واحد اصبح يحصن ايضا ضد شلل الأطفال . وكانت معدلات وفيات الأطفال تتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠ طفل من الألف منذ ثلاثين عاما فى

احد احياء الاسكندرية الوطنية ، وقد انخفضت هـــذه المعدلات فى مصر عامة الى ١١٠ اطفال فى الألف عام ١٩٦٠ ولا ريب أن هذا تقدم كبير ولكنه دون ما نرجو . فمعدلات وفيات الأطفال (دون السنة الأولى من عمرهم) ٢٤ من كل الف طفل فى السويد ، و ٣٦ فى انجلترا وويلز و ٧٧ فى ايطاليا واسبانيا و ١٠٦ فى المجر و ١٣٤ فى الهند .

ولا ريب أن لمعدلات وفيات الأطفال دلالة كبرى على الحالة الصحية العامة للقطر وعلى الحالة الاجتماعية السائدة ، التى تتجلى فى مقدار العناية بالحامل أو الاهتمام بالمولود قبل أن يولد وأثناء السنة الأولى من عمره ، وهى اخطر فترات حياته ، ويليها بعد ذلك الفترة الواقعة بين العام الأول والعام الخامس من عمره .

والأمم المتقدمة اجتماعيا ، لا تترك هذه المرحلة الحرجة من حياة الفرد لعناية الآباء والأمهات وحدهم ، بل هى تقدم معونتها على هيئة اغذية اضافية بأسعار رمزية للأم الحامل ، كما تقدم اعانات مالية لرب الأسرة . هذا بالاضـــافة الى العناية الصحية والاجتماعية المستمرة اذ أن الطفل ليس مسئوليـــة والديه فى الأمم المتقـــدمة فحسب ، بل هو ــ وبنفس الدرجة ــ مسئولية الدولة او المجتمع منذ أن يصبح جنينا فى بطن امه .

وتهتم الدراسات السكانية بمعرفة نســب السكان فى فئات السن المختلفة ، حتى تعرف مقدار قوة اليد العاملة ،

ولحسب العمالة وفرص العمل حساباً دقيقاً ، ويقـــدم الاخصائيون بوضع هذه النسب ــ بعد حســاب وفيات فئات السن المختلفة لمعرفة نسب من تبقى على قيد الحياة . فى جداول خاصة تسمى جداول الحياة (وتستخدمها أيضا شركات التأمين) . فيفترضون رعيلا من الناس (من الذكور ومن الاناث) قدره ألف شخص ، ويتتبعونهم عاما بعد عام ، ففى كل عام يتوفى عدد فيخصم من العدد الأصلى (وهو الف) ويقسم الباقى على متوسط العمر ، وهكذا عاما بعد عام ، وتشير النتائج فى كل مرة الى امد الحياة أو مقـــدار احتمال ما يعيشه الشخص من الأعوام فى كل فئة من فئات السـن .

ولاشك أن امد الحياة يختلف من قطر الى آخر ، بل ومن بيئة الى أخرى ، كما وضحنا ذلك فى معدلات الوفيات . فالفرد فى بيئة فقيرة متخلفة اكثر تعرضاً للموت من الفرد فى بيئة غنية هيأت له كل وسائل الحياة وحصنته من اخطار الموت العديدة التى تستطيع لها دفعاً . ولذلك كان الموت يتخطف الأفراد فى الأقطار المتخلفة اقتصاديا واجتماعيا ، وفى البيئات الفقيرة ويترصد بهم وهم أطفـال ، ويذوى شبابهم وتبتسر حياتهم فى مقتبل العمر . ولا شك أن فى ذلك خسارة ــ لا بالنسبة للأفراد أنفسهم فحسب ــ بل للأمة فى مجموعها . فتصور امة تنفق على أطفالها وشبانها ، ثم لا تستفيد منهم الا بمقدار عدد قليل من السنين حتى

يتخطفهم الموت ، فتبدأ من جديد فى الانفاق على اطفال جدد حتى يصبحوا قادرين على العمل والانتاج وذلك لأن أمد الحياة ـ عامة ـ قصير .

العناية بالصحة العامة ـ للطفل والراشد معا . أفضل استثمار للأمة .

ان عدد الأطفال الهنود الذين يعيشون حتى العاشرة من عمرهم لم يزد على ٥٦٫٣ ٪ من مجموع عدد المواليد (١٩٢١ ــ ١٩٣٠) اى أن أكثر من ثلث أطفال الهند يموتون قبل أن يصلوا الى سن العاشرة ولا يختلف الحال كثيرا عن ذلك فى مصر فى ذلك الوقت حيث كان نصف الذكور يتوفون فى سن ٣٤ ونصف الاناث فقط تعشن حتى سن ٤٧ . ولا يعمر الى سن السبعين الا ٢٠٫٣ ٪ من الرجال و ٣٢٫٤ ٪ من الاناث ، أى أن الأمة لم تكن تستفيد استفادة كاملة الا من خبرات وتجارب وعمل ٢٠ ٪ من رجالها . واكثر من هذا فان أكثر من ثلث المواليد يموتون قبل أن يصلوا الى العام العاشر من عمرهم . فأى خسارة للآباء وللأمة !

هذا بينما يصل ٩٢٫٣ ٪ من مواليد السويد ، ٩٤٫٦ ٪ من مواليد نيوزيلندى وسويسرة الى سن العاشرة ، أى أن الفاقد ــ اذا استخدمنا لغة الصناعة ــ فى الأطفال لا يتعدى ٦ ــ ٨ ٪ بينما هو يمثل الثلث فى بلادنا . وحوالى ٤٥ ٪ فى البلاد المتأخرة . وبينما تستفيد أقطار مثل السويد وسويسرة استفادة كاملة من خبرات ٧٠ ٪ من ابنائها هم

الذين يصلون الى سن السبعين ، فاننا كما قلنا لا نستفيد الا من خبرات ٢٠ ٪ من مواطنينا استفادة كاملة . فخمس أبناء الوطن فقط هم الذين يحيون حياة كاملة ، يعطون وطنهم خمسين عاما من العمل والانتاج والخبرة والتجربة .

يتلخص كل هـــذا فى أن الأقطار المتخلفة اقتصاديا واجتماعيا لا تزال مقبلة على التناسـل والانجاب وترتفع فيها نسب المواليـد ، كما أن الطبقات الفقـــيرة هى أكثر الطبقات ولادة ، ولكن هؤلاء المواليد لا يلبثون أن تحيق بهم الأخطار من كل جانب ، ويتهـددهم المـوت فى كل آن ، واشد هذه الأخطار فتكا هو مستوى المعيشـــة المنخفض الذى يتمثل فى المسكن السيىء والغـذاء الناقص وســوء الأحوال الصحية وقصور الخـدمة الطبية والجهل بأصول رعاية الطفل ، مما يؤدى الى ارتفاع نسب الوفيات عامة ونسب وفيات الأطفال بصفة خاصة .

فكأن الذين عجزوا عن الانفـــاق فى الطعام والمسكن والعلاج ، حبا منهم فى استمرار الحياة ، ركنوا الى زيادة المواليد ، ليدافعوا بها على أنفسهم أمام ارتفاع الوفيات . وكأن الذين اطمأنوا على أطفالهم من أخطار الموت ، واطمأنوا على وجود العلاج الكافى لهم ، ولم يزعجهم البحث عن قوت يومهم ، قد قنعوا من المواليد بالعـدد القليل ، يحســنون القيام على أمورهم ويربونهم احسن تربية .

وكان من اثر ارتفاع نسب الوفيات بين الطبقات الفقيرة

فى اى امة ، وبين الأمم الفقيرة عامة ، أن أمل الحياة اصبح ضيقا امامها ، فهبطت متوسطات الأعمار ، فكان الموت يترصد بهم فى كل مرحلة من مراحل السن ، فيموت ربعهم وهم دون الخامسة ، ويموت بقية ثلثهم دون العاشرة ، ولا يعمر منهم الا النصف لكى يصل الى سن الثلاثين ، والا نسبة ضئيلة تصل الى الشيخوخة . وهذه النسبة الضئيلة هى التى عاشت حياتها كاملة واوفت واجبها كاملا نحو أوطانها . اما أى خسارة أخرى دون ذلك فمسئولية المجتمع برمته .

أما الأقطار المتقدمة اقتصاديا واجتماعيا ، وهى اقطار غرب أوروبا والاقطار الجديدة الآخذة بأسباب المدنية الصناعية ، فقد ركنت ، بعد هبوط معدلات الوفيات فيها الى تحديد النسل ، ولكنها فى الوقت نفسه ، ارتفعت بمستواها فى المعيشة ، ولذلك كانت نسب وفيات أطفالها وصبيانها وشبابها منخفضة جدا ، بل وانخفضت فيهما نسب وفيات الرجال والكهول ، وبعبارة أخرى أدى ارتفاع مستوى المعيشة والتقدم الاجتماعى (الخدمات العديدة التى تقدمها الدولة للأفراد ، مثل التامين ضد البطالة ، والمعاشات التى تصرف للعجزة والشيوخ) الى اتساع أمل الحياة امام الجميع ، فوصلت نسبة كبيرة من السكان الى سن الرجولة بل والشيخوخة .

مثل هؤلاء السكان الذين يرتكزون على قاعدة غير

فسيحة من الأطفال يتكتلون فى سنى الرجولة ، (بعكس المجموعة السابقة من السكان فى الأقطار المتخلفة التى ترتكز على قاعدة كبيرة من الأطفال والشبان) ، ولذلك كان عدد العاملين منهم كبيرا . ولكن بعض الأقطار قد غالت غلوا شديدا فى تحديد النسل ، فأدى هذا الى أن تنعكس الآية ، ولم يصبح الأطفال هم العالة على بقية الأمة العاملة فحسب ، بل والشيوخ كذلك ، ويبدو أن كثيرا من الدول الأوروبية ، ومنها فرنسا ، قد فطنت الى هذا الخطر ، فأخذت فى تشجيع الناس على الانجاب ، بما تقدمه الدولة من معونات خاصة ، أهمها العناية الكاملة بالطفل منذ أن تحس به الأم جنينا يتحرك .

الفصل الثالث

صورة السكان

لكى نلم الماما سريعا بحركة السكان فى اى قطر ، من حيث التوزيع على فئات السن المختلفة ، من الذكور والاناث، بل ولكى نتمكن من التنبؤ باتجاهه السكانى ، من حيث معدل الزيادة ، نلخص احصائيات السكان ونرمز لها برسوم بيانية معينة ، تأخذ شكل الهرم ، وهذا الهرم هو فى الحقيقة صورة للسكان الحاليين ، يظهر فيه نسب الذكور والاناث ، فى مراحل السن المختلفة ، وهو أيضا تلخيص لحالة السكان الاجتماعية والاقتصادية خلال مائة عام تقريبا .

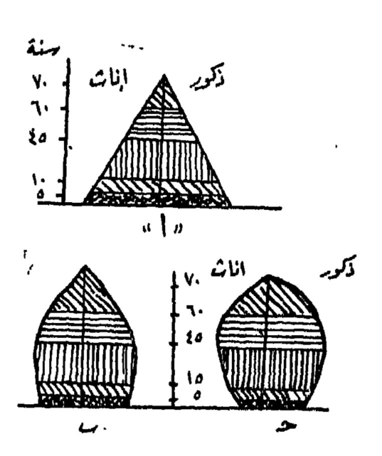
ويعمد الباحثون فى السكان الى تصنيف السكان الى فئات حسب السن ، الأطفال دون الخامسة ، ثم الصغار من الخامسة الى العاشرة ، ثم من العاشرة الى الخمسة عشرة ... وهكذا . وتنسب كل فئة الى مجموع السكان . وتوقع النسب المئوية بشكل طبقات ، نصفها من الذكور والآخر من الاناث ، وتوضع هذه الطبقات بعضها فوق بعض . ولما كان الأطفال وصغار السن عادة اكبر نسبة من الكهول والشيوخ ، فان هذا التوزيع الاحصائى ، او الرسم البيانى ،

يأخذ شكل الهرم . ومن هذا الهرم نعرف نسبة الأطفال وصغار السن الى السكان فى سن العمـل ، ونعرف أيضا نسبة الشيوخ والعجزة الى نسبة العاملين والمنتجين . ونسبة النساء الى الرجال والذكور الى الاناث فى كل فئة من فئات السن .

ومنه أيضا نعرف حجم اليد العاملة ، وحجم العائلين الى من يعولونهم . وهذا أمر يهم الباحث الاقتصادى . كما نعرف حجم الأطفال بالنسبة للنساء فى سن الحمل والانجاب وهذا يبين اتجاه السكان الى الزيادة السريعة أو المتئدة أو الثبات السكانى أو التناقص .

وفى هذا الرسم البيانى يظهر أثر الحروب أو الأوبئة أو المجاعات التى ألمت بالسكان فى تاريخهم . اذ أن الحروب مثلا تحطم فئات السن الشابة من الرجال ، فيبدو الهرم متحطما فى بعض مراحله أو درجاته .

ونعرض فيما يلى ثلاثة أهرامات سكنية شائعة فى العالم ونتحدث عن كل بايجاز :



أ هرم السكان فى حالة الشباب
ب " " " الكهولة
حـ " " " الشيخوخة

الهرم الأول يمثل قطرا يرتكز على قاعدة عريضة من الأطفال وصغار السن ، ولكن درجات الهرم تبدو شديدة الانحدار ، ومعنى هذا أن المواليد وفيرة ، وهى القاعدة من الأطفال ، لما كانت الوفيات ـ فى كل فئة من فئات السن ـ مرتفعة ، فانها تأتى على جزء من الأطفال دون الخامسة ،

فتظهر الفئة التالية بمدرج اقصر ، وهكذا تأتى معـدلات الوفيات العامة على أجزاء متتالية من السكان ، كلما انتقلنا من فئة الى اخرى ، حتى لا يعمر فى النهاية الا نسبة ضئيلة من السكان ، هى التى تتركز فوق قمة الهرم .

فى هـذا الهرم يتركز ٤٠ ٪ من السكان أو أكثر من فئات السن الصغيرة ـ أقل من ١٥ سنة ـ و ٥٠ ٪ من السكان فى فئات السن المتوسـطة (من ١٥ ـ ٦٤ سنة) وهى الفئات العاملة والمنتجة ، ويدخل فيها أيضا فئات السن المنجبة أو الولودة من النساء . والباقى وهى نسبة ضئيلة من السكان هم الشيوخ .

ونظرا لارتفاع نسبة الشباب وصغار السن فى هـذا الهرم ، فهو يمثل السكان فى دور الشباب ذلك الطور الذى يمتاز بالحيوية وكثرة المواليد ، ووفرة صغار السن . وفى مثل هذه المجموعة السكانية يقع عبء كبير على السكان العـاملين ، بين ١٥ ـ ٦٤ سنة ، اذ هم يعولون نصف السكان ، هذا على فرض أن الرجال والنساء يعملون معا ، فاذا تذكرنا أن نسبة صغيرة فقط من النساء هى التى تعمل فى مثل هذه الأقطار ، لعرفنا مقدار العبء الذى يقع على السكان فى سن العمل ، ففى مصر يعيش أكثر من ٧٠ ٪ من السكان عيالا على العاملين ، وفى بعض الأقطار تصل هذه النسبة الى ٨٠ ـ ٩٠ ٪ من السكان ، فالعبء الاقتصادى الملقى على عاتق العاملين باهظ فى مصر ، اذ لا تزال نسبة

كبيرة من القادرات على العمل ـ فى مصر ـ لا يدخلن سوق العمل .

ويبدو من وفرة الشابات والنساء فى سن الحمل فى مثل هؤلاء السكان الذى يمثله هذا الهرم ، ومن اتساع قاعدة الأطفال الذى يرتكز عليه ، أن السكان يقبلون على الانجاب بوفرة ، وبذلك فهم يسيرون نحو الازدياد ؛ ومعظم نشاط السكان الذى يمثله هذا الهرم موجه نحو البناء للمستقبل والتعمير ، بناء المدارس والمعاهد والمساكن لأطفال جدد يفدون باستمرار ، وربما خفف من عبء العاملين فى هؤلاء السكان شعورهم بأنهم يبنون للمستقبل ، ويربون اجيالا مقبلة ، تستهلك فى الوقت الحاضر ، ولكنها تنتج فى المستقبل .

ويمثل هذا الهرم الأقطار الزراعية التقليدية مثل الهند والصين واليابان ومصر ، كما يمثل اقطارا كثيرة فى أمريكا الجنوبية ، وهى الأقطار التى حدث فيها انفجار سكانى والتى لم تعرف بعد تحديد النسل .

اما النموذج الثانى (ب) فيمتاز بأن قاعدة الهرم ليست عريضة ، وجوانبه ترتفع رأسيا قبل ان تصل الى الفئات الكبيرة من السن ، اى الى قمة الهرم . كما يمتاز أخيرا باتساع هذه القمة . ومعنى ذلك أن السكان هنا لا ينجبون كثيرا ، ولكن الذين ينجبون يعيشون ، أو يفقد منهم نسبة ضئيلة ، وهذا معنى الجوانب الراسية للهرم ، فكل درجة

(أى فئة من فئات السن) تصل سالمة أو تكاد الى الدرجة التالية (أى الى فئة السن التالية) . ومعنى ذلك بعبارة أخرى أن المواليد هنا اقل من مواليد سكان الهرم السابق ، وان الوفيـات أقل بكثير . كما يبـدو من هـذا التوزيع الهرمى لفئات السن ، أن نسبة كبيرة من السكان تتركز فى سن العمل والانتاج أى ما بين ١٥ ــ ٦٤ سنة (تصل الى ٦٦ ٪ فى بريطانيا) . ونظرا لتحسن الصحة العامة ، فان فرص التعمير تتسع أمام هؤلاء السكان فتصل الى ١١ ٪ .

ويقال عن هؤلاء السكان انهم يمرون فى دور النضج أو الكهولة . اذ يمتازون بقلة المواليد وقلة الوفيات ، ولكنهم ينجبون من المواليد ما يكفى تجدد الأجيال ، وقد وصلت بريطانيا والمانيا الى هذه المرحلة منذ مطلع هذا القرن ، ولا يزال الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة فى الوقت الحاضر فى مرحلة النضج هذه ، كما تسير اليها اليابان وبعض دول جنوب أوروبا وشرقها .

اما الهـرم الثالث (حـ) فيمثـل السكان فى دور الشيخوخة ، حيث يرتكز الهرم على قاعـدة ضيقة من الأطفال ، ثم يتبعج فى الوسط ، فى فئات السن العـاملة والكبيرة ، وتتضخم القمة من كبار السن . ومعنى هذا أن فئات السن المنجبة لا تنجب الا عددا قليلا من الأطفال (هم الذين يمثلون القاعدة) وأن مستوى الصحة رفيع وبالتالى

فالوفيات قليلة ، ولذلك ينبعج الهرم من وسطه ، بل ويتركز نسبة لا بأس بها فى درجات السن المرتفعة .

فالمشكلة فى مثل هؤلاء السكان ليست فى تربية الأطفال ، بل فى اعالة الشيوخ الذين يتقاضون معاشات من الدولة ، يدفعها العاملون على شكل ضرائب واستقطاعات مختلفة . فلم تعد مشكلة الدولة بناء المدارس والمعاهد ، بل بناء المصحات وملاجىء العجزة !

وقد بدأت ظاهرة شيخوخة السكان فى فرنسا منذ نهاية القرن الثامن عشر ، عندما ارتفعت نسبة كبار السن من ٨ ٪ من السكان عام ١٧٨٨ الى ١٠ ٪ عام ١٨٥٠ وظلت تتزايد حتى وصلت الى ١٦ ٪ عام ١٩٤٧ ، ويخشى اذا استمر عزوف الفرنسيين عن النسل أن تصل نسبة المسنين والشيوخ الى ٢٤ ٪ من السكان ، ومن ثم عمدت فرنسا الى اطالة مدة الخدمة ، غير أن الشيوخ بعد الستين أو الخامسة والستين لا يصلحون الا للأعمال المكتبية ، وربما استطاعوا الاستمرار فى بعض المهن الراقية كالطب والمحاماة ، ولكنهم لا يصلحون للعمل فى المناجم والموانىء والصناعات الثقيلة ، مما استدعى دعوة اليد العاملة الشابة من الخارج .

الفصل الرابع

تزايد السكان

كان عدد السكان فى العالم يقدر عام ١٩٥٠ بنحو ٢٥٠٠ مليون نسمة ، وقفز عام ١٩٦٠ الى ٣٠٠٠ مليون نسمة ، وهو يتزايد زيادة مضطردة ولم يكن لها نظير فى اى فترة تاريخية سابقة ، ففى أوائل العشرينات من هذا القرن كان العالم يزيد بنحو ١٧ مليون نسمة كل عام ، وهو منذ عشر سنوات كان يزيد بمقدار ٢٥ مليون نسمة كل عام (أو مقدار سكان مصر فى الوقت الحاضر) ، ولا تزال الزيادة مضطردة ، مثل الربح المركب تماما ، اذ تقدر الزيادة السنوية الآن بما يزيد على ٣٠ مليون نسمة فى السنة . ومعنى هذا أن فى كل ثانية يفد الى العالم (ويعيش فيه) خمسة افواه جديدة ، وبمرور أربع وعشرين ساعة يفد اليه اكثر من ٩٠٫٠٠٠ فم جديد . واذا استمر معدل الزيادة السنوية العام فى العالم بنحو ١٫٢ ٪ فى السنة ، فان سكان العالم سيتضاعفون بعد ٥٠ سنة ، وسيعيش فوق ظهر هذه الأرض ٥٠٠٠ مليون نسمة .

وتصدر الأمم المتحدة كل عام تقديرا لعدد سكان كل قارة وعدد سكان العـالم ، ويحسب الباحثون من هـذه التقديرات زيادة السكان فى العالم ، على أساس نسب مختلفة من نسب زيادة السكان فى بعض الأقطار . وتتراوح هـذه النسب بين معدل الزيادة فى الأقطار الجـديدة المفتوحة للمهاجرين مثل أمريكا الجنوبية ، وكندا ، وبين معدل الزيادة لبلاد أخرى يمارس أهلها عادات ضبط النسل مثل انجلترة وويلز ، بل ومعدل أقل من ذلك .

ونورد فيما يلى مستقبل هذه الزيادة مبتدئين من عام ١٩٥٠ :

جدول رقم (٧)

تزايد السكان بنسب مختلفة فى العالم ١

	٠,٢٥ ٪	٠,٥٠ ٪	٠,٧٥ ٪	١,٠ ٪	١,٢٥ ٪	١,٥ ٪
١٩٥٠	٢,٣٥٠	٢,٣٥٠	٢,٣٥٠	٢,٣٠٠	٢,٥٣٠	٢,٣٥٠
١٩٦٠	٢,٤٠٩	٢,٤٧٠	٢,٥٣٢	٢,٥٩٦	٢,٦٣٥	٢,٧٢٧
١٩٧٥	٢,٥٠١	٢,٦٦٢	٢,٨٣٣	٣,٠١٤	٣,١٢٨	٣,٤١٠
٢٠٠٠	٢,٦٦٢	٣,٠١٦	٣,٤١٤	٣,٨٦٥	٤,١٦٣	٤,٩٤٧
٢٥٠٠	٩,٢٧٨	٣٦,٥١٠	١٤٣,٢٠٠	٥٩٩,٥٠٠	١,٢٢٦,٠٠٠	٨,٤٦٠,٠٠٠
٣٠٠٠	٣٢,٣٣٠	٤٤٢,٠٠٠	٦,٠٠٣,٠٠٠	٨١,٨٠٠,٠٠٠	٣٨٤,٨٠٠,٠٠٠	$١,٤٤٧ \times ١٠^{٧}$
٥٠٠٠	٤,٧٦٩,٠٠٠	$٩,٤٩٦ \times ١٠^{٦}$	$١,٨٥٦ \times ١٠^{١٠}$	$٣,٥٥٨ \times ١٠^{١٣}$	$٣,٣٨٩ \times ١٠^{١٥}$	$١,٢٣٧ \times ١٠^{٢٠}$

(١) أسس حساب تزايد السكان

١٫٥ ٪ أقل من متوسط الزيادة فى أمريكا الجنوبية ، وأعلى بقليل من متوسط الزيادة فى الهند من ١٩٣١ — ١٩٤١

١٫٢٥ ٪ نسبة الزيادة فى العالم من ١٩٢٠ — ١٩٤٧ ، ونسبة الزيادة فى الاتحاد السوفيتى ١٩٢٦ — ١٩٢٧ وأقل من نسبة الزيادة فى الولايات المتحدة ١٩٤٠ — ١٩٥٠

١٫٠٠ ٪ نسبة الزيادة فى كندا ١٩٣١ — ١٩٤١ ، استراليا ١٩٣٣ — ١٩٤٧

٠٫٧٥ ٪ نسبة زيادة الولايات المتحدة ١٩٣٠ — ١٩٤٠ ، وفوق نسبة الزيادة فى العالم من ١٣٥ — ١٩٤٧

٠٫٥٠ ٪ أقل من نسبة زيادة السكان فى انجلترة وويلز من ١٩٢١ — ١٩٥١

٠٫٢٥ ٪ أقل من نسبة زيادة لأى مجموعة من الأقطار الهامة

ومعنى هذا أن معدل الزيادة فى العالم قد وصل الى اعلى معدل يمكن أن يصل اليه ، وحتى لو هبطت هذه المعدلات قليلا فى الخمسين سنة القادمة ، فانها لن تخفف من ضغط تزايد السكان فى العالم .

وعلينا أن نتذكر أمرا هاما ، وهو أن معدلات الزيادة السكانية هذه شيء حديث فى تاريخ العالم . ولا يعود الى اكثر من ثلاثة أو اربعة قرون فقط . ومن ثم فان البشرية لأول مرة فى تاريخها تجابه مشكلة تزايد السكان .

ولكى نفهم كيف وصلت البشرية الى هذا الحد من التكاثر العظيم ، علينا أن نسترجع شيئا من تاريخها الاقتصادى والاجتماعى العام . ثم نحاول أن نصل الى ما يسمى بالدورة السكانية ، ونرى مكاننا — أهل مصر والوطن العربى — فى هذه الدورة ، ونحاول أن نرسم لنا سياسة سكانية على هذا الأساس .

يرجع تاريخ النوع البشرى الذى ينتمى اليه سكان العالم جميعا ، والذى يطلق عليه العلماء اسم الانسان العاقل الى ۱۰۰,۰۰۰ سنة خلت ، وهذا النوع البشرى الذى ورث من أسلافه وبنى عمومته من البشر الآخرين حضارة العصر الحجرى القديم الأعلى كان صيادا جامعاً للقوت ، فى حالة صراع دائم مع عناصر الطبيعة المختلفة ، جوها ونباتها وحيوانها . ولم يكن يزيد عدده فى الأقاليم المحدودة التى كان يعمرها عن خمسة ملايين نسمة .

ولا تزال هناك مجتمعات تعيش فى مستوى العصر الحجرى القديم ، ضئيلة العدد ، متناثرة فى مساحات واسعة ، فى صحراء كلاهارى بجنوب افريقية ، وفى صحراء استراليا ، وفى فيافى جرينلنده وكندا الجليدية ، وهى جميعا تؤكد حاجة الصياد لكى يعيش ، الى مساحة واسعة من الأرض ، ومن ثم كانت كثافة مثل هذا المجتمع فى حدود الشخص الواحد فى الكيلومتر المربع . أى أن الفرد الواحد يحتاج الى كيلومتر مربع على الأقل يجول فيه باحثا عن جذر يقتلعه ، أو ثمرة صالحة ياكلها ، أو حيوان يصطاده .

ومنذ حوالى عشرة آلاف سنة عرفت البشرية فى بقاع محدودة ذات خط خاص فن الزراعة وتربية الحيوان ، وتلك هى الثورة الأولى فى تاريخها الطويل ، ثورة نقلت الانسان من عالم الكائنات الهائمة على وجوهها ، الى عالم الاستقرار ، ومن حياة التجوال الى حياة التوطن . وهذه الثورة التى ظهرت فى أودية الأنهار الكبرى ، وادى النيل الأولى (مصر) والرافدين (العراق) والسند والهوانج هو ، بادىء الأمر ، ثم انتقلت بعد ذلك الى أنحاء عديدة من العالم فى فترات تاريخية متعاقبة ، حتى شملت العالم الذى أصبح متحضرا فيما بعد ، وكان معنى هذه الثورة أن الانسان لم يعد عالة على الطبيعة ، مستهلكا لخيراتها ، ولكنه أصبح عضوا فعالا فيها ، منتجا للخيرات ، معمرا للأرض .

والثورة الزراعية تعني مقدرة الانسان على انتخاب

النباتات التى يريد زراعتها ، والحيـــوانات التى يريد أن يربيها ، ولا شك انه استنبط أنواعا جديدة من النبـــات والحيوان . ولا نزال نعيش على ما اختـــاره من حيوان لاستئناسه لم نضف اليها حيوانا واحدا ، وما اختاره من نبات لم نكد نضيف اليه جديدا (وان استنبطنا سلالات جديدة منها) .

← ومن أهم نتائج هذه الثورة أن الانســـان الزارع قد استطاع أن ينتج من الطعام مقادير وفيرة ، لا تكفي الفلاح المنتج للطعام مباشرة فحسب ، بل تكفى الى جانبه عدة أسر اخرى . فتكون ما يسمى بفائض الانتاج ، وهذا يعنى غذاء لمزيد من الناس ، يكفون عن أنتاج الطعام مباشرة ويتفرغون لأعمال أخرى كالصـــــناعة والعمارة والتفـــكير والابداع والسياسة والحكم .

ومجتمعات القرى هذه التى نشات فى العصر الحجرى الحديث ـ عصر اكتشاف الزراعة ـ استطاعت أن تنتج من الطعـــام ما يكفى أعدادا متزايدة من السكان ، كما أنهـــا استدعت استقرار الأسر فى أوطان ثابتة ، فكان الاستقرار والاطمئنان الى لقمة العيش والمقدرة الفائقـــة الفجائية فى انتاج الطعام مدعاة الى تزايد السكان اذ هبطت الوفيات ، لزوال حياة الصيد المحفوفة بالمخاطر ، وازداد عدد المواليد باستقرار الأسر . ويقدر چوليان هكسلى عدد السكان فى

هذه الفترة ـ أى منذ عشرة آلاف سنة ـ بنحو ٢٠ مليون نسمة .

ومع تقدم فنون الزراعة ، واكتشاف المعدن الذى يعتبر الثورة الثانية الكبرى فى تاريخ البشرية ، ازدادت المجتمعات المتحضرة قدرة على فلح الأرض واستخراج خيراتها والاستفادة من عناصر البيئة ، سواء كانت نباتية أو حيوانية أو معدنية .

ومن ثم ازداد عدد سكان العالم ـ حسب تقدير هكسلى كذلك ـ باتساع الرقعة المتحضرة وازدياد المقدرة التكنولوجية للانسان الى ٣٠ مليون نسمة ، أو ٢٠ ـ ٤٠ مليون نسمة .

وبعد أن تم وضع اسس المدنيات العريقة ، وقامت الحكومات المركزية المستقرة واستتب الأمن فى بقاع معينة من العالم ، ازداد النشاط التجارى بين هذه المراكز المدنية ، مما استدعى اكتشاف وسائل جديدة للنقل ، فتم اختراع العجلة والشراع واستخدام الحيوان فى الجر والنقل . كما تأسست الامبراطوريات الواسعة ، امبراطورية مصر القديمة ، وفارس القديمة ، وامبراطورية الاسكندر وخلفائه والامبراطورية الرومانية . وقد عملت كل منها على نشر المدنية والتحضر والزراعة فى أقطار جديدة لم يكن لها عهد بذلك من قبل ، كما عملت على نشر الأمن فى مساحات واسعة من العالم المعمور فى ذلك الحين . وبلغ هذا العالم

مداه فى عهد الامبراطورية الرومانية ، التى توسعت من قاعدة حوض البحر المتوسط حتى نهرى الدانوب والراين شمالا وحدود الصحراء الكبرى وصحراء بلاد العرب جنوبا . وفى هذا العهد وصل سكان العالم المتحضر حد المائتى مليون نسمة .

٤ - وكانت كل زيادة فى مقدرة الانسان على الأنتاج تعنى زيادة فى السكان . فزيادة الانتاج معناها زيادة الطعام أو القدرة على تبادل شىء مقابل طعام . وتوفر الطعام هو السبب الأول فى بقاء حياة الفرد ، مثله فى ذلك مَثَل بقية الأنواع الحيوانية أو النباتية . واذا توفر الطعام وأمن الفرد غذاء يومه وغده ، بدأ فى التفكير فى امتداد نوعه الى عقبه ، اى فى الزواج ، والزواج هو وسيلة الانسان للمحافظة على نوعه .

ـ والعكس ايضا صحيح ، فزيادة السكان تعنى زيادة استغلال البيئة ، وتعنى مزيدا من الأيدى التى تحرث الأرض والتى تنتج الآلات والصناعات ، كما تعنى التوسع فى تقسيم العمل ، وزيادة الانتاج واتقانه . وهذه هى الحلقة المفرغة « الطيبة » ـ فى بعض فترات التقدم الاقتصادى ـ زيادة الانتاج ـ تؤدى الى زيادة السكان وزيادة السكان بدورها تؤدى الى زيادة الانتاج . ولقد مر كل مجتمع ، فى كثير من العصور ، فى مثل هذه الفترة ، أو دخل فى مثل هذه الحلقة الطيبة .

ومن بدء العصر المسيحى حتى نهاية العصور الوسطى (القرن الخامس عشر فى أوروبا) لم يتعد سكان العالم ٢٧٥ مليون نسمة .

وقبل بدء العصر التاريخى الحديث ، كانت المجتمعات المتحضرة التقليدية زراعية ، حيث ثبتت الزراعة قواعدها ، ومن ثم لم تخرج عن نطاق معين سمى بالعالم المعمور ، وتتمثل هذه المجتمعات أتم تمثيل فى سهول الأنهار الكبرى ، فى مصر والعراق والسند والكانج والهوانج هو ، كما تتمثل فى السهول الأوروبية الخصبة ، فى شمال ايطاليا وحوض السين وجنوب شرق انجلترا ، وفى السهول الخصبة فى اسبانيا والبرتغال ، وأهمها سهل الأندلس ، وفى عدة سهول متفرقة فى شمال افريقية وسوريا . أما فى الشرق الأقصى فتتمثل فى سهول انهار الصين العظمى .

وتحتاج الزراعة التقليدية المستقرة الى أيدى عاملة وفيرة ، وحبذا لو كانت رخيصة ، ولذلك كان الفلاح يعتمد على أبنائه فى الحقل ، ولما كانت الأسر هى التى تقوم بالزراعة فى مجتمع ضئيل الحظ من المعرفة التكنولوجية ، وعلى قدر ضئيل من التعليم ، كانت الأسر أشد حاجة الى التماسك والترابط حتى تستطيع أن تنتج ما يكفيها من طعام . وكان الفلاح أشد ما يكون حاجة الى اليد العاملة الرخيصة ، فيلجأ الى الزواج المبكر لكى ينجب من يساعده فى عمل

الحقل . فالنسل فى هذه الحالة راس مال اقتصادى ويد عاملة للفلاح .

ولم تكن تلك المجتمعات تخشى تضخم النسل ، لأن الطبيعة نفسها كانت تتولى تنظيمه ، أعداء خارجيون لاحصر لهم ، يتمثلون فى الجراثيم والأوبئة ، لا بد من مقابلتهم باطلاق النسل ، أى أن الوفيات المرتفعة كانت تستدعى — وقاية للنوع البشرى من الانقراض — مواليد مرتفعة . وهذه المجتمعات هى التى عناها مالتس — فيما بعد — عندما تحدث عن العوامل التى تعوق الزيادة أو تضبطها ، دون تدخل واع من الانسان ، فالتكاثر المستمر يحد منه تفشى المرض والمجاعة والحروب أو المنازعات على ملكية الأرض الخصبة أو مصادر الثروة الأخرى .

وكانت الأسر تتطلع باستمرار الى الانجاب ، وتشجع الزواج المبكر وترنو الى زيادة عددها ، وكان ينتظمها أنظمة أبوية محكمة ، تتكون من الأب والأم وأولادهما ، وزوجات الأولاد والأحفاد . ولم يكن الفلاح وحده عاملا فى الأرض ، بل كان معه أولاده ، وكلما ازداد هؤلاء عددا ، كلما استطاع أن يستحوذ على قطعة أرض أكبر يزرعها . وعندما تتقدم به السن ويعجز عن العمل يقوم الأولاد بتقديم العون له . فالنسل فى هذه الحالة ضرورة اقتصادية ، وضمان ضد العجز والشيخوخة .

الا أن المجتمع بأسره كان يتعرض للكوارث الطبيعية من

حين الى حين ، ممثلة فى الأوبئة والطواعين التى كانت تحصد الناس حصدا . وكان الناس يقبلون هذه الكوارث كأنها جزء من نظام الطبيعة يأتى على الفائض من السكان .

كما كانت المجتمعات تلجأ ــ اذا زاد عدد سكانها ــ الى الهجرة والنزوح الى خارج أوطانها ، حيث تؤسس مستعمرات جديدة ، مثل المستعمرات الفينيقية التى حملت بعض سكان سواحل سوريا ولبنان الى شمال افريقية وجنوب أسبانيا ، والمستعمرات الاغريقية فى كل ميناء وقطر فى شرقى البحر المتوسط وفى سواحل البحر الأسود ، ومثل زحف المصريين القدماء الى جنوبى أسوان والجندلين الأول والثانى ، وزحف الرومان الى بلاد الغال ، وغير ذلك كثير .

واخيرا وليس آخرا ، فقد كانت الحروب الصغرى لا يهدأ أوارها بين القبائل بعضها والبعض الآخر ، وبين الدويلات والدول العديدة التى كان ينقسم اليها العالم القديم ، هذا عدا الحاميات التى كانت تقف على اهبة الاستعداد باستمرار على حدود الامبراطوريات القديمة ، وكانت هذه الحروب والمناوشات المتصلة ــ على قصر أمدها ــ تعنى تنحى جزء من الشبان عن تكوين أسر وانجاب أطفال ، وهى عامل فعال فى تحديد النسل .

وكانت هذه المجتمعات ــ من الصين حتى بلاد الغال (فرنسا) ــ تخشى قلة السكان اى اليد العاملة ، حتى لا تتعرض لقلة انتاج الطعام ، فتشجع النسل . ولكنها فى

الوقت نفسه تخضع الفرد فى حياته الزوجية لشتى صنوف المحرمات والطقوس والعادات ، وتلغى ارادته أمام ارادة المجتمع فى مسائل الزواج والمعاشرة الزوجية لكى يستطيع المجتمع أن يحقق التوازن بين الطعام والسكان .

هذه المرحلة التى مر بها سكان العالم - والتى لا يزال جزء من سكان العالم الحاليين يمرون بها - تسمى المرحلة المالثوسية ، لأنهـا تترك أمر تنظيم نفسها الى العوامل الطبيعية أو مثلث مالثس المشئوم : المجاعات والأوبئة والحروب ، وتتصف هذه المرحلة - كما بينا - بارتفاع نسبة المواليد (بين ٤٠ - ٥٠ فى الألف) وارتفاع نسبة الوفيات ارتفاعا كبيرا . يكاد يأتى على ارتفاع نسبة المواليد نفسها . فيظل السكان فى حالة ثبات . ويبدو أن الناس فى هـذه المرحلة ، وقد عجزوا عن الملاءمة بين المواليد - أى عدد الأفواه الواردة للعالم - والطعام اللازم لهم ، تركوا أمرهم للطبيعة ، فتولت هى عنهم تحديد عدد السكان بما يناسب كمية الطعام المتوفرة لديهم .

***

الثورات الحديثة :

كان العالم خلال التاريخ القديم وكذلك عالم العصـور الوسطى قد وصل الى مرحلة توازن سكانى معين ، ولم يعرف حالات من التزايد السكانى الكبير الا فى فترات وفى

مناطق محدودة كذلك ، مثل مصر فى عهد الفراعنة والبطالمة وروما فى عهد الجمهورية ، ومصر أيضا والعراق والأندلس فى عهد الدولة العربية الاسلامية ، والصين فى بعض عهودها المزدهرة .

ولكن مع بدء العصور التاريخية الحديثة ، وقف العالم على عتبة عهد جديد ، هو عهـــد التكاثر السكانى ، بل والانفجار السكانى كذلك . واذا كانت الثورة الزراعية هى التى مهدت لتزايد سكان العالم من ١٠ مليون نسمة فى العصر الحجرى القديم الى ٢٠ مليون فى العصر الحجرى الحديث ثم الى ٢٧٥ مليون نسمة حتى نهاية العصور الوسطى ، فان سلسلة أخرى من الثورات الاقتصادية هى التى ادت الى تزايد السكان على نطاق واسع وبخطوات كبيرة تعتبر فلكية بالنسبة للخطوات السابقة .

وكانت حركة الكشف الجغرافى من القرن الخامس عشر حتى التاسع عشر فاتحة مجالات لا حد لها فى ميادين الفتح والاستعمار والاستغلال الاقتصادي ، فلقد كانت الأمريكتان واستراليا ونيوزيلنده غير معروفتين للعـالم المتحضر في أوراسيا وحوض البحر المتوسط ، فلما تم استكشافهما ، كان ذلك فتحاً لمجالات جديدة للهجـرة وتكوين الأوطان ، بل لقد كان اكتشافهما فى الحقيقة اكتشاف لموارد جديدة وهائلة من الطعام ، ويكفى أن نذكر أن البطاطس وهى الغذاء الرئيسي لملايين عديدة في أوروبا لم تعرف الا فى أمريكا بعد

أكتشافها ، والذرة ، وهي الغذاء الرئيسي لشعوب افريقيا والشرق الأدنى لم تعرف الا بعد اكتشاف أمريكا . فكأن اكتشاف العالم الجديد قد ساعد على تغذية الملايين الغفيرة في قارات العالم القديم ، ومن ثم في ايجاد سبل العيش ، والتكاثر والتزايد السكاني لها . هذا عدا الحقول البكر الواسعة الأخرى لزراعة قصب السكر ، وتربية الماشية وانتاج اللحوم والجلود ، وغيرها من المحاصيل الغذائية التى دخلت ضمن قائمة الغذاء والشراب اليومية لشعوب العالم فى الوقت الحاضر .

ولم يقتصر الأمر على اكتشاف ما يعرف بالعالم الجديد (الأمريكتين واستراليا ونيوزيلنده) ، بل لقد اتجه الكشف الجغرافى كذلك الى وسط آسيا واعماق القارة الافريقية ، وكان من نتيجة ذلك — من وجهة نظرنا — نقل محاصيل جديدة لشعوب أوروبا ، مثل الشاى والحرير وفول الصويا ، أما الأرز فقد سبق للعرب أن أدخلوه من قبل الى اقطار البحر المتوسط . وهذه نقلت من الشرق الأقصى . كما نقل من افريقية زيوت النخيل التى تدخل فى الطعام اليومى للأوروبى فى الوقت الحاضر .

الكشوف الجغرافية اذن كان معناها اكتشاف محاصيل غذائية جديدة أطعمت الأفواه المتزايدة فى أوروبا ، حتى دون أن تكلف نفسها مشقة الانتقال الي تلك الأراضي المكتشفة .

وكان معناها كذلك فتح مجالات جديدة للهجرة والاستعمار وتكوين أوطان جديدة .

وقد ادت حركة الكشوف الجغرافية كذلك الى انشاء الأساطيل والشركات التجارية الكبرى ، فنشأت ما تسمى بالثورة التجارية فى القرن السادس عشر ، وهذه الشركات عملت على تمويل الأساطيل التى تعبر المحيطات وتربط القارات ، وتمويل حركة الهجرات أى تحمل المسافرين والمهاجرين من أوروبا الى شواطىء العالم الجديد ، وتمويل المستعمرات الجديدة فى سواحل الأمريكتين واخيرا فى استغلال الأقطار غير الأمريكية التى عرفها الأوروبيون حديثا ، فى آسيا وافريقية ، أى بدأت مجال الاستعمار الأوروبى الحديث .

وفى نفس الوقت كانت بلاد غرب أوروبا تتقدم فى مجالات اخرى ، اهمها بلا شك تحرير الأرض من الاقطاع ، وتحرير العقل من ربقة السلطان الخارجى ، ممثلا فى الكنيسة . وسنرجىء الحديث عن تحرير الأرض الآن ، ونتحدث عن تحرير العقل :

لقد كانت الكنيسة الكاثوليكية سلطة فكرية ـ كما كانت سلطة روحية ـ عليا ، فكانت هى التى تحدد ما يقرأ وما يدرس وتوافق أو لا توافق على النتاج الفكرى للفلاسفة والعلماء ؛ غير أن أوروبا ـ منذ القرن الخامس عشر ، بدأت تثور على هذه الوصاية الفكرية ، وكانت فى ذلك متأثرة

بتحرر العقل العربى الاسلامى فى جامعات الأندلس ، فاعلن عدد من علمائها ومفكريها ثورتهم على رقابة الكنيسة ، ودفع البعض حياته ثمنا لذلك ، حتى تغلب التحرر الفكرى آخر الأمر على التزمت والجمود والوصاية الكنسية . ونشأت ما تسمى بالثورة العلمية التكنولوجية ، وكانت أروع ما تكون فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولا تزال سائرة فى طريقها حتى الآن .

وكان من نتائج تلك الثورة العلمية التقدم الانقلابى الهائل فى العلوم الطبية ومجالات الصحة العامة . والطب الوقائى ـ كالتعقيم ، واكتشاف الميكروب والاهتداء الى ضرورة اتباع عادات صحية جديدة واكتشاف وسائل الصحة العامة كما نعرفها اليوم والتى ساعدت الانسان ـ لأول مرة فى التاريخ ـ الى كبح جناح الأوبئة والطواعين ، بل والتحصن ضدها ، والقضاء عليها فلم نعد نسمع ـ بعد القرن الثامن عشر ـ عن طواعين تجتاح القرى والأمصار ، او عن أوبئة تكتسح أمامها الملايين وان حدث وأفلت أحد هذه الأوبئة ، فسرعان ما يتمكن الطب الحديث من محاصرته والقضاء عليه .

فهبطت معدلات الوفيات هبوطا كبيرا ، بعد أن تم القضاء على عدد كبير وخطير من أعدى أعداء الانسانية ـ الميكروبات .

هذا كما ساعدت العلوم الحديثة والتكنولوجيا عن تطوير

طرق النقل والمواصلات وتيسير السفن — والانتقال من مكان الى آخر ، ونقل المحاصيل عبر القارات والمحيطات ، فاصبحت المناطق الجديدة او العذراء فى العالم الجديد وجنوب افريقيا واستراليا ونيوزيلندة ، سهلة المنال أمام طالبى الهجرة ، بل لقد ساعدت العلوم الطبيعية والكيميائية على معرفة نواحى التربة والنباتات ، وأمكن الاعتماد الى حد كبير على استخدام العلم فى مجال التنمية الاقتصادية .

وفى نفس الوقت أيضا ظهرت الثورة الزراعية . ومن أولى مظاهر هذه الثورة فى غرب أوروبا ، ثم فى وسطها فيما بعد ، تحرير الأرض من ربقة الاقطاع ، فلم تعد وقفا على سادة الاقطاع ، يمنعون فيها الصيد أو قطع الغابات ، ويتركون فيها مساحات واسعة من المستنقعات مجالا لصيدهم ولهوهم . بل وزعت الأراضى على الملاك ، صغارهم وكبارهم ، وتخلصت الأرض نهائيا من الملكيات التقليدية الاقطاعية الكبيرة ، وتمكنت الحكومات القومية المركزية — التى تكونت أيضا لأول مرة فى غرب أوروبا من تجفيف المستنقعات وتوزيع الأراضى على المشترين .

كما استنبطت وسائل جديدة لحرث الأرض ، استخدم فيها المحراث الحديدى الذى تجره عدة جياد ، وأدخلت الدورة الزراعية ، كما استخدمت المخصبات الكيميائية . واستفاد الفلاحون من نتائج علوم الوراثة فى ستنباط بذور وفصائل نباتية جديدة . واستطاعت الأرض بمجهود أقل

ان تغل طعامالعدد اكبر من الناس ، وبذلك اصبح هناك فائض سكانى لا تحتاج اليهم الأرض الزراعية ، فاتجه هذا الفائض الى المصانع والأعمال الجـديدة او الى الهجرة عبر البحار .

واخيرا قامت الثورة الصناعية ، وهى دون شك نتيجة للثورة العلمية التى سبق الاشارة اليها ، وقد تمت هذه الثورة على مرحلتين ، فى القرن الثامن عشر ، وفى القرن التاسع عشر ، ولم يكن لها أن تقوم لو لم تسبقها الثورة الزراعية التى انتجت كميات كبيرة من الطعام ، واستغنت عن فائض من اليد العاملة . وأهم مظاهر الثورة الصناعية ، اكتشاف قوة البخار فى دفع الآلة ، وانتقـال الصناعة من الحوانيت الصغيرة والمنازل الى المصانع الكبيرة ، أو انتقالها من يد المنتج الصغير الى يد المنتج الكبير ، وتكديس العمال فى مصانع كبيرة ، وتقسيم العمل بين عدد كبير من العمليات، يقوم بكل منها عامل واحد أو قسم واحد من المصنع ، أو مصنع واحد من مجموعة مصانع .

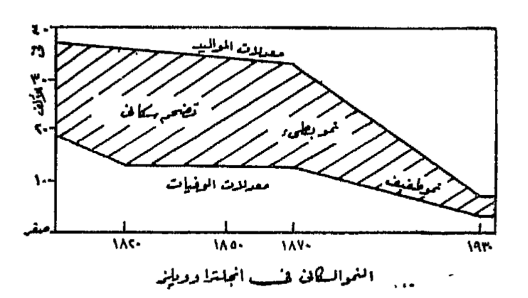
هذه المصانع الكبيرة حققت اكبر ربح ممكن من العمل ، وعملت على تكديس الثورة ، وهذه بدورها انشأت مصانع جديدة وهكذا . وقد استدعت الثورة الصناعية التى قامت أول الأمر فى بريطانيا تحويل مزارع القمح الى مراع للضأن (وهى مادة الصوف الخام) والاستغناء عن خدمات الفلاحين، الذين اضطروا الى النزوح الى المدن والعمل وراء الآلة ،

او الى الهجرة الى المستعمرات الانجليزية والأمريكية . كما ادت الى البحث عن موارد جديدة للمواد الخام بأرخص الأسعار ، وعن أسواق للسلع المصنوعة تباع فيها بأرباح مجزية ، وبمعنى آخر الى الاستعمار بمعنى السيطرة والتسلط .

ونتيجة لهذه الثورات المتلاحقة ، زاد انتاج الطعام فى أوروبا ، وتدفقت المحاصيل الغذائية اليها من مستعمراتها عبر البحار . وامكن القضاء على كثير من الأمراض واصبحت الأوبئة من قصص التاريخ . وتم ضبط الوفيات ، وانخفضت معدلاتها انخفاضا كبيرا ومضطردا . ولما كان الناس لا يزالون على عاداتهم القديمة فى الانجاب الوفير فقد حدث فارق كبير بين المواليد المرتفعة والوفيات المنخفضة ، هذا الفارق الكبير هو الزيادة الطبيعية الضخمة التى حققتها دول غرب أوروبا خلال القرون الثلاثة او الأربعة الأخيرة ، والتى يطلق عليها اسم الانفجار السكانى .ويوضح ذلك الانفجار الجدول والشكل التاليين :

جدول رقم (٨)
تزايد السكان فى القرون الثلاثة الاخيرة

السنة الميلادية	تقدير عدد السكان بالملايين
١٦٥٠	٥٤٥
١٧٠٠	٦٢٣
١٧٥٠	٧٢٨
١٨٠٠	٩٠٦
١٨٥٠	١ر١٩٤
١٩٠٠	١ر٦٠٨
١٩٢٠	١,٨٣٤
١٩٣٠	٢ر٠٠٨
١٩٤٠	٢ر٢١٦
١٩٥٠	٢ر٤٠٦



النمو السكانى فى انجلترا وويلز

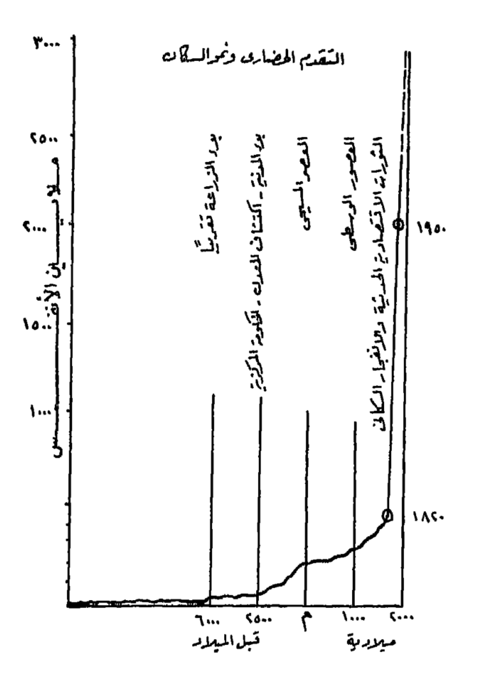
كان مجتمع غرب أوروبا فى القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، اكثر تقــدما ولا شك من المجتمع الزراعى التقليدى ، الا انه كان لا يزال الى حد ما يعتمد على الزراعة الراقية ، ورغم اهميـــة الأسرة فى مثل هذا النمط من المجتمع ، الا أن الفرد لم يكن يخضــع للأسرة خضوعا تاما ، لأنه كان قد وصل الى درجة من التقدم العلمى تؤهله لكى يعمل على تحقيق مصلحته دون وصاية المجتمع ، ولذلك عمل الفرد على أن يؤجل الزواج قليلا ؛ ولما كان هذا الفرد يتمتع بنتائج العلوم الطبية الحديثة ، فانه كان يتمتع أيضا بنتائج انخفاض معدلات الوفيات ، وان كانت معدلات المواليد لا تزال مرتفعة ، ومن ثم ظهر فائض سكانى كبير نتيجة حتمية للمواليد المرتفعة والوفيات المنخفضة .

هذه الظاهرة التى مرت بها أوروبا فى الفترة بين القرن السابع عشر والتاسع عشر ، تمر بها اجزاء كثيرة من العالم العربى اليوم ، وكثير من الأقطار الآخذة باســباب النمو الاقتصادى ، والعلوم الحديثة . ولذلك حدث انفجار سكانى فى مصر والهند فى القرن الحالى . ويخشى على هذه المجموعات التى تمر بمرحلة النمو السريع فى تزايد السكان زيادة تفوق طاقتهم الانتاجية ، ويخشى أن يتهدد مستوى المعيشة فى مثل هذه الأقطار بالانهيار ويطل ثالوث مالثس الرهيب الفقر والمجاعة والحرب .

وقد دخلت مصر والهند والصين ــ كما ذكرنا ــ فى

هذا الطور منذ منتصف القرن الحالى . وينتمى الى ذلك الدور أيضا بقية الأقطار الاســـيوية ـ فيما عدا الاتحاد السوفيتى ـ بما فى ذلك اليابان . ومعظم جمهوريات أمريكا الوسطى والجنوبية والبحر الكاريبى وجزر المحيط الهادى .

وعلينا ان نتذكر فرقا هائلا وهاما بين الانفجار السكانى كما حدث فى أوروبا ، وبينـــه كما هو حادث الآن فى مصر والهند والصين وغيرها من أقطار العالم النامية . هذا الفارق هو ان ســكان أوروبا المتزايدين كانوا ـ كلما تزايدوا ـ يجــدون مجالات جديدة فى المصــانع التى واكبت الثورة الزراعية والثورة الصناعية ، وفى المهاجر الجديدة ؛ لقد كان امامهم ثلاث قارات تحتاج لتعمــــير فخرجوا من أوروبا أفواجا ، زرافات ووحدانا ، لبناء أوطان أوروبية جديدة فى العالم الجديد . أما سكان العالم النامى الآن ، فليس لهم سوى الاعتماد على أنفسهم ، وليس أمامهم مهاجر واسعة يهاجرون اليها بدون قيد ولا شرط ، كما كانت أقطار العالم الجديد بالنسبة للأوروبيين .



التقدم الحضاري ونمو السكان
ملايين الأنفس
٣٠٠٠
٢٥٠٠
٢٠٠٠
١٥٠٠
١٠٠٠
بدء الزراعة تقريباً
بدء المدنية - اكتشاف المعادن ، العلوم المركزية
العصر المسيحي
العصور الوسطى
الثورات الاقتصادية الحديثة وانفجار السكان
١٩٥٠
١٨٢٠
٦٠٠٠
٢٥٠٠
م
١٠٠٠
٢٠٠٠
قبل الميلاد
ميلادية

جدول رقم (٩)

تقدير زيادة سكان العالم بين ١٦٥٠ – ١٩٥٠

القــارة	١٦٥٠	١٧٥٠	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠	١٩٥٠
بملايين الأنفس						
أوربا	١٠٠	١٤٠	١٨٧	٢٦٦	٤٠١	٥٤١
أمريكا الشمالية (كندا والولايات المتحدة)	١	١٫٣	٥٫٧	٢٦	٨١	١٦٦
أمريكا الوسطى الجنوبية	١٢	١١٫١	١٨٫٩	٣٣	٦٣	١٦٢
الاوقيانوسية	٢	٢	٢	٢	٦	١٣
افريقيا	١٠٠	٩٥	٩٠	٩٥	١٢٠	١٩٨
آسيا	٣٣٠	٤٧٩	٦٠٢	٧٤٩	٩٣٧	١٣٢٠
مجموع سكان العالم	٥٤٥	٧٢٨	٩٠٦	١١٧١	١٦٠٨	٢٤٠٠
النسب المئوية لتوزيع السكان						
أوربا	١٨٫٣	١٩٫٢	٢٠٫٧	٢٢٫٧	٢٤٫٩	٢٢٫٥
أمريكا الشمالية (كندا والولايات المتحدة)	٠٫٢	٠٫١	٠٫٧	٢٫٣	٥٫١	٦٫٩
أمريكا الوسطى والجنوبية	٢٫٢	١٫٥	٢٫١	٢٫٨	٣٫٩	٦٫٨
الاوقيانوسية	٠٫٤	٠٫٣	٠٫٢	٠٫٢	٠٫٤	٠٫٥
افريقيا	١٨٫٣	١٣٫١	٩٫٩	٨٫١	٧٫٤	٨٫٣
آسيا	٦٠٫٦	٦٥٫٨	٦٦٫٤	٦٣٫٩	٥٨٫٣	٥٥٫٠
	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

فمنذ القرن السادس عشر ترك حـــوالى ٦٠ مليون أوروبى قارتهم الى العالم الجديد ، وكانت الشركات التجارية بل والحكومات تشرف على عمليـــة هجرة الفـــائض من السكان الى الأوطان الجديدة عبر البحار . وفوق ذلك فان المجتمعات الأوروبية الحديثة فى الأمريكتين واســـتراليا قد اغلقت الباب نهائيا أمام الأسيويين والافريقيين وشرعت من القوانين ما يحرم هجرتهم الى المهاجر الأوروبية الجديدة . وهذا امر هام علينا أن نتدبره . فلم يبق أمام الســـكان الزائدين الا مهاجر داخلية فى كل من آسيا وافريقية .

٧ - ظهور فكرة ضبط النسل :

بعد ان عبرت أوروبا مرحلة الانفجار السكانى ، ووجد اهلها أن المهاجـــر قد استوعبت ما يكفيها من الســـكان أو كادت ، وبعد أن تحول المجتمع الأوروبى ـــ ولا سيما فى غرب اوروبا ـــ من المجتمع الريفى الى المجتمع الحضرى ، وزحف الفلاحون من الحقول الى المصانع ومن القرى الى المدن ، ولمسوا بأيديهم انخفاض الوفيات ، فطنوا الى ضرورة ضبط النسل ، فقام مالتس وغيره من المفكرين يبصرون اممهم الى ضرورة التريث فى الانجاب ، خشية أن يتدهور مستوى المعيشة فتنشب فيهم المجاعة والمرض اظفارهما .

غير أن ضبط الوفيات كان أسرع من ضبط النسل ، لأن الأول لا يتطلب الا اجراءات طبية بعضها وقائى والآخر

علاجى ، أما ضبط النسل فيرتطم ـ على الأقل فى تصور بعض الناس ـ بمعتقدات دينية أو عادات اجتماعية ، ولذلك كان انتشار دعوة ضبط النسل بطيئا ، وكانت فى المدن أسرع منها فى القرى ، وبين الطبقات الأكثر ثقافة أسرع منها بين الطبقات الأقل ثقافة . ومن ثم مرت أوروبا منذ أوائل هذا القرن بفترة انتقالية ، كان النمو السكانى خلالها أبطأ من النمـــو فى فترة انفجار السكان ، اذ تراوحت الزيادة الطبيعية ما بين ١٠ ـ ١٥ فى الألف .

ويمر فى هـــذه المرحلة ـ فى الوقت الحاضر ـ سكان الاتحاد السوفيتى ودول شرق أوروبا والبحر المتوسط وبعض جمهـــوريات أمريكا اللاتينية (شـــيلى والأرجنتين والبرازيل واورجواى) وتركيا وشمال افريقية . ويقدر وهؤلاء بنحو خمس سكان العالم .

وتشير الدلائل كلها الى أن عدد المجموعات السكانية التى تسير نحو الدخول فى هذه الزمرة يزداد باستمرار . فمما لا شك فيه أن اليابان ـ وخصوصا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . قد بدأت فعلا فى الدخول اليها . كما أن سكان مصر وتونس والجزائر فى الطريق اليها .

ولقد سارت بعض الدول الأوروبية المتقدمة اقتصاديا واجتماعيا شوطا بعيدا فى ممارسة ضبط النسل ، وبعضها مثل فرنسا مارســـته مدة قرنين من الزمان ، ومارسته انجلترة قرنا كاملا على الأقل . وهى لم تفعل ذلك الا بعد

ان مرت فى فترة الانفجار السكانى وقطعت المرحلة الانتقالية، واصبحت فى دور يمتاز بارتفاع مستوى الصحة والمستوى الاجتماعى والاقتصادى . وقد ادت الرغبة فى الاحتفاظ بهذا المستوى الرفيع من المعيشة الى انخفاض معدلات الوفيات انخفاضا شديدا بلغ ١١ فى الألف فى انجلترا مثلا ، بينما انخفض معدل المواليد فيها الى ١٥ فى الألف ، فاصبحت الزيادة الطبيعية ٤ فى الألف وهذه زيادة بطيئة لا شك فيها ، ولا شك أن الدافع وراء ضبط النسل فى هذه المجتمعات المتقدمة اقتصاديا واجتماعيا هو الرغبة فى الاحتفاظ بمستوى المعيشة المرتفع ، ولا سيما وقد ازدحم الناس فى المدن ، واصبح الأطفال عبئا اقتصاديا كبيرا . كما شجعهم على ذلك انخفاض معدلات الوفيات عموما ، ووفيات الأطفال بصفة خاصة .

وقد انتقلت المشكلة فى بعض المجتمعات ، مثل فرنسا وغرب أوروبا عامة ، من مرحلة « خشية كثرة النسل » الى مرحلة « خشية قلة النسل » ، قلة قد لا تستطيع أن تقوم بعملية تعويض السكان وتحديد الجيل . ولقد جاهر بعض المفكرين فى هذه المجتمعات التى بلغت نهاية الدورة السكانية قبيل الحرب العالمية الثانية ، الى ضرورة تشجيع الناس على الاقبال على الانجاب . وبينما يتنادى الناس فى مصر والهند بضرورة تنظيم النسل ، نجد هؤلاء فى غرب أوروبا يتنادون بضرورة تشجيع النسل . فالمجتمع فى هذه المرحلة

حائر بين رفاهية الفرد وحفظ النوع او حفظ كيانه من التدهور والانهيار .

٧ - نستطيع ان نلخص دورة تزايد السكان فى النقــط الآتية :

١ ــ المجتمع البدائى ــ مواليد مرتفعة ووفيات مرتفعة . ركود سكانى (لا زيادة ولا نقصان) .

٢ ــ المجتمع الزراعى التقليـــدى ــ مواليد مرتفعــة ووفيات أقل ارتفاعا . زيادة ضئيلة تحفظ للمجتمع توازنه

٣ ــ المجتمع الزراعى التقليدى بعد الثورة العلمية ــ مواليد مرتفعة ووفيات منخفضة . زيادة كبيرة فى السكان ــ انفجار سكانى .

٤ ــ نفس المجتمع بعد فترة ــ مواليـــد اقل ووفيات منخفضة . زيادة قليلة فى السكان .

٥ ــ نفس المجتمع بعد فترة اخرى ــ مواليد قليلة ووفيات منخفضة . زيادة طفيفة فى السكان .

ونخلص من هذا الى نقط اساسية نجملها فيما يلى :

* ان الانفجار السكانى نتيجة حتمية لتطبيق نتائج الثورة العلمية والطبية .

* وانه لا يحدث الا فى الأقطار الناميـــة ، فالرفاهية والتقدم الاقتصادى معناها غذاء أوفر ووفرة الغذاء معناه اقبال على الزواج والتناسل وزيادة السكان .

* وان التقدم الاقتصادي والحياة الحضرية في المدن تعنى ارتفاع مستوى المعيشة .

* وارتفاع مستوى المعيشة نفسه مدعاة تحفز الفرد الى ضبط النسل .

* ومن ثم كانت الزيادة المتانية نتيجة اجتماعية للانفجار السكاني .

السكان والطعام

من الصعب تقدير العلاقة بين عدد السكان ومصادر الانتاج في الدولة الحديثة لصعوبة تقدير الانتاج ، وصعوبة التنبؤ بالتقدم الفني والتغير التكنولوجي في المجتمعات الحديثة ، وصعوبة تقدير مستقبل استهلاك السلع المادية ، فهذه عناصر سريعة التغير مستمرة التطور ، كما ان العلاقات التجارية بين الدول المختلفة لا تقل عن ذلك تذبذبا ، فالعالم يسير نحو كفاية استخدام الطاقة والموارد الخام ، واطلاق قوى الذرة معناه اطلاق العنان لقوى لا يمكن التنبؤ بما ستصل اليه .

وربما كان التنبؤ بحركة السكان وعلاقته بالانتاج ميسورا في المجتمعات الزراعية ، حيث العلاقة بسيطة بين كمية الطعام وعدد السكان ، أما بالنسبة للأقطار المتقدمة فمثل هذا التنبؤ لا قيمة له لقصور معلوماتنا عن مدى

التقدم الصناعي ، ومدى التقدم فى مستوى المعيشة وغيرها من العوامل الحضارية .

← وينقسم الباحثون فى هذا الموضوع الى قسمين : قسم متفائل يؤكد أن التفوق العلمي والتكنولوجى سيفوق زيادة السكان ونضوب الموارد ، بحيث يمكن انتاج طعام يكفى كل تزايد فى السكان ، وتعويض نضوب الموارد الحالية ، باكتشاف مواد بديلة . . . وقسم مالثوسى متشائم متخوف من تزايد السكان فى العالم اجمع وقلة الموارد . وكلا الفريقين يبسط المسألة تبسيطا كبيرا ، يجعلها تنتهى الى نتائج قد تكون مضللة . فلا بد أن نعرف بداهة أن هناك حدا لما تستطيعه الأرض ان تتحمل من أحياء ، كما لا بد ان نعرف بداهة أيضا اننا لم نصل بعد الى هذا الحد .

← كما أن هناك بعض مشاكل سكانية اقليمية تدعو الى تشاؤم مالتس ، فدراسة عناصر الغذاء فى المناطق المكتظة بالسكان والمتخلفة فنيا تبين بوضوح أثر اكتظاظ السكان فى توزيع الطعام ، فالتخلف الفنى والعلمى هو السبب فى قلة الطعام فى هذه المناطق المكتظة بالسكان . ومن هذه المناطق التى يقترب استهلاك الغذاء فيها الى الحد الأدنى الذى لا يكاد يسمح ببقاء الفرد فى الحياة ، الصين وكوريا والهند وجاوه وباكستان الشرقية ، حيث معدل الغذاء أقل من ٢٤٠٠ كالورى فى اليوم . ويعيش نصف سكان العالم

فى هذا المستوى ، وهؤلاء يعانون من عدم كفاية الغذاء لعدد متزايد من لسكان .

وبالاضافة الى هذا يوجد قسم كبير من العالم يعيش بالقرب من امكانيات غذائية لا بأس بها ، ولكن نظرا لعدم كفاية وسائل الانتاج ، فانهم يعيشون بالقرب من المستوى الأدنى لمجرد الحياة ، وبذلك تشبه أحوالهم احوال السكان فى البلاد المكتظة المتخلفة اقتصاديا ، ويتمثل هذا القسم فى افريقية المدارية وأمريكا اللاتينيـــة ويمثل سكانه سدس سكان العالم .

وسدس العالم فقط يعيش فى بلاد مدت نفوذها الانتاجى ـ عن طريق التقدم التكنولوجى والتوســع التجارى الى جهات اخرى من العـــالم ، ومنها يستكملون نقص الانتاج الغذائى العام فى بلادهم ، وهؤلاء هم سكان دول غرب أوروبا ووسطها واليـــابان ، ومركز هؤلاء السكان آمن فى الوقت الحاضر ، طالما كانت ظروف الانتاج الحالية سائدة ، ولكنهم ـ فى المستقبل ـ سيجدون أنفسهم فى وجه منافسة بلاد اخرى تحاول أن تستغل مواردها بنفسها ، وتنافسها فى ميدان التجارة .

واخيرا فسدس سكان العـــالم فقط يعيشون فى بلاد متقدمة صناعيا ، وعلى رقعة واســـعة من الأرض ، غير مزدحمة بالسكان ، وهذا السدس يشمل سكان الولايات

المتحدة والاتحاد السوفيتى وكندا واستراليا وربما الأرجنتين ونيوزيلندة أيضا . وفى هذه البلاد متسع لمزيد من السكان فى المستقبل .

والآن ما هو مستقبل السكان فى العالم ؟ اذا افترضنا ثبات الأحوال السياسية الدولية ، وعدم وقوع صدام عالمى او قلقلة سياسية كبرى : ربما حدثت التطورات الآتية فى علاقة السكان بموارد الانتاج خلال عشرات السنين القليلة المقبلة .

١ ـ فى البلاد المزدحمة بالسكان والمتخلفة صناعيا ، قد يحدث تقدم طفيف ، يخفف من وطأة زيادة السكان ، نظرا لما ينتظر لها من تقدم فنى ، مما يمكن الناس من تحسين وسائل الانتاج ، والارتفاع بمستوى معيشتها .

٢ ـ فى البلاد القليلة السكان والمتخلفة صناعيا ، اذا حدث فيها تقدم فنى وصناعى يرفع من انتاجية الأرض ، فان ذلك يسمح بزيادة عدد السكان ، واستقبال عدد كبير من المهاجرين من البلاد المزدحمة بالسكان . وهذا بدوره يزيد من انتاج الأرض مما يؤدى فى النهاية الى رفع مستوى المعيشة ـ اى أن هذه البلاد تحتاج لليد العاملة وللتقدم الفنى معا .

٣ ـ البلاد المتقدمة فنيا ، والتى لا تعانى من ازدحام السكان . والتى وصلت فعلا الى مستوى رفيع من المعيشة ، ستواصل العمل للمحافظة على مستواها الرفيع ،

وسيستمر طلبها على موارد المواد الخام لرفع مستواها . وهذا سيسمح أيضا باستمرار ازدياد السكان . وقد تزداد شهية هذه البلاد ـ مثل الولايات المتحدة ـ الى مواد خام تنتجها بلاد بعيدة مثل الزيت الكاريبى وزيت الشرق الأوسط والنحاس والقصدير من أمريكا الجنوبية والنحاس والأورانيوم الافريقى وغيرها من المعادن . وهذا قد يستمر الى حين تنبه الأقطار المتخلفة الى قيمة مواردها الخام . وعندئذ اما أن تطلب تلك الأقطار مشاركة الولايات المتحدة فى أرباحها أو تحاول استخراجها واستغلالها بنفسها . ومن ثم تجابه البلاد المتقدمة فنيا ذات مستوى المعيشة المرتفع لأول مرة خطر ثبات مستوى المعيشة فيها أو بدء هبوطه بالتدريج .

٤ ـ وهذا الخطر ستجابهه كذلك البلاد المتقدمة صناعيا والتى تعتمد فى صناعتها على ثروات البلاد المختلفة ـ أو المستعمرات السابقة ـ وعندئذ ستضطر الى النزول تدريجيا عن مستواها الرفيع فى المعيشة .

٥ ـ تحاول تلك الدول المتقدمة صناعيا أن تواجه هذا الخطر بالتكتل الاقتصادى الاقليمى وقد بدأت بوادر ذلك بعد الحرب العالمية الثانية بانشاء اتحاد دول النبلوكس (بلجيكا وهولندة ولوكسمبورج) ، وانشاء السوق الأوروبية المشتركة ، وتحاول تلك الدول ـ المستعمرة من قبل ـ انشاء وحدة أوروبية افريقية ، للاستحواذ على موارد

القارة الافريقية ، وادخالها فى نظام اقتصادى يربط افريقية بأوروبا .

٦ تقدم الصحة العامة فى العـالم سيؤدى الى خفض الوفيات ، وهـذا سيؤدى الى تضخم السكان فى البـلاد المتخلفة ، مما يحفزها الى البحث عن سـبل لزيادة انتاج طعامها .

٧ ـ زيادة الطعام أمر ممكن فنيا وعلميا ، ولهذا آثاره السكانية لاشك . ولكن المهم الاحتفاظ بمستوى معيشة معقول فى هذه لأقطار النامية .

٨ ـ الطاقة هى مفتاح التقدم الاقتصادى كله ، فهى عصب الصناعة ، وهى التى تحول المعادن الى سلع مفيدة ، بل هى التى تستخرج المعادن من التربة ، مثل الألومنيوم وعجائن البلاستيك ، ويرجع تخلف بلاد كثيرة الى تخلفها فى انتاج الطاقة ، فاذا أمكن توليد الطاقة من مواد قليلة الحجم ، فان هذا يعنى تغيرا شاملا فى توزيع مراكز القوى فى العـالم ، وتحويل كثير من منـاطق الانتاج من مرحلة الامكانيات الى مرحلة الحقائق .

وبعد ـ فان أهم تغيير اقتصادى سكانى سيطرأ على العالم هو تغير العلاقة بين الدول المتقدمة التى كانت تستغل موارد المستعمرات وبين الدول الناميـة والدول المتخلفة المستقلة حديثا ، والتى تعمل لتنمية اقتصادها واللحاق بركب المدنية .

(جدول رقم ١٠) المعدلات الحيوية لأقاليم العالم الرئيسية خلال فترتين ١٩٣٦ – ١٩٣٨ ، ١٩٤٦ – ١٩٤٨

	معدلات من كل ألف نسمة					
	الفترة بين ٣٦ – ١٩٣٨			الفترة بين ٤٦ ١٩٤٨		
	المواليد	الوفيات	الزيادة الطبيعية	المواليد	الوفيات	الزيادة الطبيعية
المتوسط العالمي	٣٤ — ٣٨	٢٤ — ٢٧	٨ — ١٣	٣٥ — ٣٧	٢٢ ٢٥	١١ — ١٤
افريقيـة	٤٠ — ٤٥	٣٠ - ٣٥	٧ — ١٣	٤٠ — ٤٥	٢٥ — ٣٠	١٢ — ١٨
أمريكا :						
أمريكا الشمالية	١٧	١١	٦	٢٥	١٠	١٥
« اللاتينية ..	٤٥ — ٤٥	٢٠ — ٢٥	١٧ — ٢٣	٤٠	١٧	٢٣
آسيا (دون الاتحاد السوفييتي) :						
الشرق الأدنى	٤٠ — ٤٥	٣٠ - ٣٠	٧ — ١٣	٤٠ — ٤٥	٣٠ — ٣٥	٧ — ١٣
جنوب وسط آسيا	٤٠ — ٤٥	٣٠ — ٣٥	٧ — ١٣	٤٠ — ٤٥	٢٥ - ٣٠	١٢ — ١٨
اليابان	٢٨	١٧	١١	٣١	١٥	١٦
بقية الشرق الأقصى	٤٠ — ٤٥	٣٠ — ٣٥	٧ — ١٣	٤٠ — ٤٥	٣٠ — ٣٥	٧ — ١٣
أوروبا والاتحاد السوفييتي كله :						
شمال غرب ووسط أوروبا ..	١٧	١٣	٤	١٩	١٢	٧
جنوب أوروبا	٢٣	١٦	٧	٢٣	١٢	١١
شرق أوروبا والاتحاد السوفييتي	٣٠ — ٤٠	١٧ — ٢١	١١ — ١٥	٢٨	١٨	١٠
الاوقيانوسية	٢٠	١١	٩	٢٨	١٢	١٦

الفصل الخامس

سكان مصر

مصر من أبعد اقطار العالم عراقة وأقدمها حضارة ومدنية . وهى من أوائل مراكز الحضارة الزراعية القليلة ، حيث عرف الانسان فنون الزراعة منذ الألف السادسة قبل الميلاد . وتقوم الحضارة الزراعية فيها على ضبط فيضان النيل وتوزيع ماء الرى ، وعندما تجود ارض مصر بالبُرّ فهى تنبت سنابله ، فى كل سنبلة مائة حبة ، وتستطيع أن تغذى أعدادا غفيرة من السكان .

فالحضارة الزراعية فى مصر ، القائمة على الاستقرار ، وتوزيع ماء الرى ، وتوفير الأمن واستتبابه ، تحتاج الى أمر جوهرى ، هو الادارة القوية ، التى تستطيع أن تقيم مشاريع الرى ، وتوزع مياهه بعدل وتؤمن الفلاح على رزقه المنثور فى الحقول . وحينما تزدهر الحقول ويفيض النيل بالخيرات وينعم الفلاح بالأمن ويزداد الانتاج وتزدهر الحياة الاقتصادية ويعم الرخاء . وحينما يقبل الفلاحون على الزواج وينشئون الأسر وينجبون البنين والبنات ، يزداد

السكان . وتبدأ حلقة طيبة أخرى ، فالسكان المتزايدون أقدر على القيام بمشاريع رى جديدة ، وحرث أراض جديدة ، أو تكثيف الزراعة ، أو الاتجاه الى أوجه نشاط جديدة ، فمزيد من الانتاج فمزيد من السكان .

والمتتبع لتاريخ الحضارة فى مصر يلاحظ أن عدد سكان مصر كان يزداد فى عصور الأمن السياسى والرخاء الاقتصادى ، وكان هذا العدد المتزايد من السكان مصدرا لقوة مصر السياسية فى الخارج . كذلك فان عدد السكان لم يتدهور فى مصر الا فى فترات ضعفها السياسى وانهيارها الاقتصادى . ولقد قدر بعض المؤرخين الافريقى عدد سكان مصر فى القرن الأول السابق للميلاد بنحو سبعة ملايين نسمة ولم تكن مصر فى ذلك الحين تمر فى أسعد أوقاتها ، كما قدر عدد سكان مصر الفرعونية بنحو من سبعة الى اثنى عشر مليون نسمة ، هذا فى وقت كان المصريون يعتمدون فيه على الرى الشتوى فحسب . كما قدر أحد المؤرخين العرب عدد سكان مصر الاسلامية بنحو ١٤ مليون نسمة . ولا شك أن هذا رقم مرتفع اذا عرفنا أن محاصيل مصر الرئيسية كانت القمح والبقول ، وكانت طرق الرى تعتمد على الفيضان السنوى فحسب .

قارن هذا بعدد السكان المتدهور الذى وصل الى مليونى نسمة ونصف فى عهد الحملة الفرنسية ، اى فى خاتمة العهد التركى العثمانى . ولا ريب أن هذا الانخفاض

المروع لعدد السكان كان يرجع الى الفوضى المملوكية فى عهد الولاة العثمانيين واهمال الترع والقنوات ، فلم تهتم بحفرها وتركتها ليد الزمن تطمرها بالتراب والرمال . وهذه الترع هى شرايين الحياة فى جسم مصر ، والتى عناها فرعون عندما كان يزهو بملكه ، كما ورد فى القرآن الكريم « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى » . ليس هذا فحسب ، بل ان الأمن كان شديد الاضطراب ، فكثرت اغارات البدو والأعراب على القرى وعم فساد الترك والمماليك وتعرضت محاصيل الفلاحين اما للتلف تحت سنابك الخيل ، أو السرقة والنهب عند جمعها . فلا غرو ان انتشرت المجاعات والأوبئة ولا عجب ان هجر الناس الأرض والزراعة وفروا منها .

كل هذا لم يكن ليساعد على الاستقرار والهدوء ، ولا على الزواج والانجاب ، وفضلا عن انه كان يؤدى الى ارتفاع معدلات الوفيات فى جميع الأعمار لا سيما لدى الأطفال ، ارتفاعا كبيرا . وهذا هو المجتمع البدائى الذى تدوى فيه الوفيات المرتفعة بأى نسبة من نسب المواليد . وان توالى مثل هذه الحالة عاما بعد عام وجيلا بعد جيل لكفيل بأن يخفض عدد السكان من ١٤ مليون نسمة الى مليونى نسمة !

المجتمع المصرى اذن كان يتراوح بين المجتمع الزراعى التقليدى المستقر الذى يقبل فيه الفلاح على الانجاب وحب الذرية والعمل فى الحقل لانتاج الطعام للأفواه المتزايدة ،

ولكى يستخدم سواعدها فى فلح أرض جديدة وانتـــاج محاصيل أخرى ، اى مجتمع نشيط موفور الحيوية فى عهود القوة والازدهار الاقتصادى ؛ وبين مجتمـــع زراعى موبوء بثالوث مالتس المشئوم ، المجـــاعة والأمراض والحـــرب ، لا لانه لم يستطع أن ينتج من الطعام ما يكفى الأفواه القادمة الى الحياة ، ولا لقصور فى انتاج الطعام لتكفى الزيادة المتلاحقة فى السكان ، ولكن لشيوع الفوضى والاضطراب واهمـــال أعمال الرى والترع والقنوات ، فهذه مسائل دخيلة سببها سياسى اجتماعى خارج عن ارادة الفلاح ، عنـــدئذ يرتد المجتمع من حالة الأزدهار الى حالة التدهور . وهكذا .

واذا ركزنا على حالة سكان مصر فى القرن ونصف القرن الأخير ، لوجدنا تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى الحديث ليكاد يحكى طرفا من الدورة السكانية التى مرت بها أقطار غرب أوروبا منذ القرن الثامن عشر حتى أوائل القـــرن العشرين .

لقد خرجت مصر من مرحلة مالتس أو المرحلة البدائية التى فرضتها عليها عهود الفوضى والاضطراب العثمانية ، وعاد اليها وجهها المشرق السابق ، الذى ظهرت به فى معظم فترات تاريخها المزدهر ، بعد أن استتب الأمن والنظام فى بداية العصر الحديث ، وبعد أن أمكن انشاء دولة على قدر كبير من الاستقلال عن الدولة العثمانية . فلم تعد مصر ولاية عثمانية يرد اليها الباشوات كل عام أو عامين أو بضعة

اعوام على اكثر تقدير ، بل اصبحت لها حكومة مستقرة . وضربت هذه الحكومة بيد قوية على قبائل البدو واضطرتهم الي ترك حياة البداوة وفرض حراستهم القسرية على أرض الفلاحين ، الي حياة الاستقرار والزراعة ، كما انها كانت قد صفت بصفة نهائية فلول المماليك . فلم تعد حقول مصر وقراها تئن تحت سنابك خيول المماليك أو الأعراب ، ولم تعد محاصيل الفلاح نهباً بين السنجق التركى ومشايخ العربان . وبذلك تم أول متطلبات الحياة الزراعية المستقرة فى مصر وهو استتباب الأمن .

وبدأت مصر تدخل فى ثورتها الزراعية الأولي بعد عام ١٨٣٣ ، أى بعد انشاء القناطر الخيرية ، وامكان تحويل جزء من أراضى الدلتا الي الرى الدائم ، وتوفير جزء من المياه للمحاصيل الصيفية التى دخلت أرض مصر لأول مرة ، فأحدث هذا انقلابا اقتصاديا جذريا ، اذ تحولت مصر من من ارض تنتج القمح والبقول ومواد الغذاء الشتوية ، الى ارض تنتج القطن وقصب السكر وهما من المحاصيل النقدية ، ودخلت محاصيل مصر الرئيسية ميدان التجارة العالمية ، واصبحت جزءاً من الاقتصاد الصناعى العالمي نفسه .

والغريب ان تقارير قناصل الدول الأجنبية فى ذلك الوقت كانت تقول أن جزءا من محصول القطن لم يمكن جمعه لنقص فى الأيدى العاملة ، ورغم بدء زيادة السكان ، الا ان

الشعور العام السائد وقتئذ هو وجود نقص فى الأيدى العاملة . فمياه الرى التى بدأ تخزينها أمام القناطر وتوزيعها فى ترع لم تجد من الأيدى العاملة الزراعية ما هو كاف لاستغلالها احسن استغلال .

ولقد كان حريا بسكان مصر وقد بدأوا فى انتاج محصول نقدى له قيمته ، وتهيأت لهم فرص تكثيف الزراعة لتوفر ماء الرى ان يزداد عددهم ، الا أن عهد محمد على كان حافلا بالمغامرات العسكرية . وراء الحدود ، فأهرقت دماء الصفوة من الشباب فى الحروب العديدة التى خاضها محمد على ، كما انه لم يكن قد اخذ بعد بالاحتياطات الوقائية الصحية ، وربما لم يكن الطب نفسه قد تقدم بعد تقدما كبيرا ، فتعرضت البلاد لبعض الأوبئة والطواعين ، كانت تجتاح البلاد مرة كل عشر سنوات ، ولحسن الحظ كانت تلك الأوبئة هى آخر عهد البلاد بالطاعون . فلم يعد هذا المرض يطل عليها بوجهه الكالح بعد ذلك الحين .

وكان طموح هذا الوالى فوق طاقة البلاد السكانية ، فقد انشأ جيشاً وأسطولا كبيرين ، ووسع املاكه فى آسيا والسودان ، وانشأ صناعة متعددة الأغراض ، ترسانة بحرية ، ومصانع ذخيرة ، ومصانع للغزل والنسيج ، كل هذا بذلك العدد القليل من السكان ، الذى لم ينم نموا مضطردا كما كان مقدراً له . ولذلك فانه بعد ان أجبر على قبول الصلح من قبل الدول الأوروبية سنة ١٨٤٠ ، وعلى

الرغم من السلم الطويل الذى شهدته مصر فى أربعينات القرن الماضى ، فان البلاد شهدت ركودا اقتصاديا بسبب غلق المصانع وانهاء احتكارات محمد على .

غير أن ذلك كله لم يؤثر فى الزراعة ، فاستمرت فى التوسع ، واذا كانت المصانع قد اغلقت فقد اتسع نطاق الزراعة ، واستطاعت أعمال الرى وزراعة القطن وقصب السكر أن تستوعب الجنود المسرحين ، وكانت تتطلب المزيد من السكان .

الا أن تزايد السكان عاد الى التلكؤ مرة اخرى ، اذ ضاعف من أزمة قلة الأيدى العاملة اللازمة للزراعة ، سحب عدد كبير من الفلاحين من قراهم الى برزخ السويس ، ليحفروا قناة السويس سخرة فى ظروف بالغة القسوة ، خلال الفترة بين عامى ١٨٥٦ ــ ١٨٦٣ . وقد سقط الكثير من الضحايا فى رمال سيناء والبرزخ .

جدول رقم (١١)

تقديرات عدد السكان بين عامى ١٨٠٠ و ١٨٧٧

تقدير ١٨٠٠	٢ر٤٨٨ر٩٥٠	نسمة
« ١٨٢١	٢ر٥٤٠ر٠٠٠	«
« ١٨٤٨	٤ر٥٤٢ر٠٠٠	«
« ١٨٧٢	٥ر٢١٠ر٢٨٧	«
« ١٨٧٧	٥ر٥١٧ر٦٢٧	«

ولكن ما ان زالت تلك العوارض الخارجيــة ، حروب محمد على وسخرة قناة السويس فى عهد اسماعيل ، حتى بدا السكان فى التزايد الحقيقى ، خصوصا وأن البلاد كانت قد بدات تاخذ باساليب الطب الحديث والصحة العــامة الحديثة ، فقضى على الأوبئة والطواعين ، وكثير من الأمراض المعدية ، مثل الجدرى والكوليرا ، فانخفضت بالتالى معدلات الوفيات وخرجت مصر نهائيا من مرحلة مالثس البدائية ، ثم سارت حثيثا فى تنفيذ برامج الرى الصــيفى ، واقامة القناطر وحفر القنوات واتسعت الزراعة راسيا وافقيــا ، فامكن زراعة اكثر من محصول فى السنة ، ووصلت مياه الترع ، مثل ترعة الابراهيمية . الى اراض لم تكن تصلها مياه الرى من قبل . وهذا بلا شك أدى الىالتنمية الزراعية الفائقة ، وحقق ازدهارا اقتصاديا ، فاقبلالفلاح على الزواج وزراعة الأرض ، وارتفع مستوى معيشته وامتلأت الخزانة العامة بالمال وأمكن الصرف على الشئون الصحية العامة ومن ثم كان اضطراد تزايد الســكان تزايدا كبيرا تراوح كل عشر سنوات بين ٢٩٪ عام ١٨٨٢ و ١٢٪ عام ١٩١٢ . ولم تعد مصر تشكو نقصاً فى الأيدى العاملة الزراعية كما كانت تشكو فى مطلع هذا القرن .

جدول رقم (١٢)

احصائية بنمو السكان بين عامى ١٨٨٢ – ١٩٦٠

السنة	عدد السكان	نسبة الزيادة في الفترة بين كل إحصائين
١٨٨٢	٦٫٨٠٤٫٠٠٠	—
١٨٩٧	٩٫٧١٥٫٠٠٠	٢٤ ٪
١٩٠٧	١١٫٢٨٧٫٠٠٠	١٦٫٢ ٪
١٩١٧	١٢٫٧ ٥٫٠٠٠	١٣ ٪
١٩٢٧	١٤٫٢١٨٫٠٠٠	١١٫٥ ٪
١٩٣٧	١٥٫٩٣٣٫٠٠٠	١٢٫٢ ٪
١٩٤٧	١٩٫٠٢٢٫٠٠٠	١٩٫٨ ٪
١٩٦٠	٢٦٫٠٦٩٫٠٠٠	١٣٫٦ ٪

لقد قفز عدد السكان من نحو ٥ ملايين نسمة الى ٢٦ مليونا فى أقل من قرن واحد . اى تضاعف خمس مرات فى تسعين سنة . وهى زيادة لا مثيل لها فى العالم ، ولا يمكن أن تقارن بأى قطر من الأقطار العريقة التى لم تستقبل مهاجرين جدد . ولا تدنو منها اوروبا عقب الثورة الصناعية، فألمانيا لم تتضاعف الا باكثر من ثلاث مرات خلال قرن واحد ، وسكان بريطانيا الصناعية فى القرن التاسع عشر لم يتضاعفوا الا أقل من ثلاث مرات خلال قرن ، ولم يزد

سكان ايطاليا خلال مائة سنة الا بنسبة ٦ر٢ ضعف ، وزاد سكان فرنسا فى فترة نموها مرة ونصف مرة فى مائة عام .

لقد حدث انفجار سكاني في مصر بلا شك ، منشؤه التقدم الاقتصادي في مجال الزراعة والتوسع رقعتها ، وتكثيف المحاصيل ، وادخال دورة زراعة تسمح بزراعة اكثر من محصول واحد ، والعناية بالبذور . حتى لقد قدر احد الاقتصاديين أن محصول الفدان من القمح فى مصر اعلى منه فى فرنسا ، ومحصول الفدان من القطن اكبر من محاصيل الهند وأمريكا ، ومحصول الفدان من الذرة اكبر من محصول الذرة الأمريكي . أى أن انتاج الفدان في مصر من القمح والقطن والذرة يعتبر أعلى من انتـــاج الفدان فى البلاد المتقدمة المعروفة بزراعة المحاصيل المشابهة .

جدول رقم (١٢)

العلاقة بين زيادة السكان وزيادة الأرض الزراعية

	١٩٠٧	١٩١٧	١٩٢٧	١٩٣٧	١٩٤٧	١٩٦٠
عدد السكان بالمليون	١١ر٣	١٢ر٨	١٤ر٢	١٥ر٩	١٩ر٠٤	٢٦ر٠٦٩
المساحة المزروعة بملايين الأفدنة	٥ر٤	٥ر٣	٥ر٥	٥ر٣	٥ر٧٤	٥ر٨٤٤
المساحة التى تخص الفرد بالفدان	٠ر٤٨	٠ر٤	٠ر٣٩	٠ر٣٣	٠ر٣	٠ر٢٣
المساحة المحصولية	٧ر٦٦٢	٧ر٦٨٦	٧ر٣٠٧	٨ر٦٦١	٩ر١٦٦	١٠ر٣٦٧
« المحصولية التى تخص الفرد بالفدان	٠ر٦٨	٠ر٦٠	٠ر٦٢	٠ر٥٢	٠ر٤٨	٠ر٣٩

المواليد والوفيات والزيادة الطبيعية :

تعتبر معدلات المواليد فى مصر مرتفعة جدا ، ولا تقارن الا بأعلى معدلات فى العالم ، وتتراوح بين ٤٠ ــ ٤٥ فى الألف ولم تنقص عن ٤٠ فى الألف الا فى اعقـاب الحرب العالمية الأولى (ثورة ١٩١٩) فى خلال الحرب العالمية الثانية ، ثم عادت معدلات المواليد الى الارتفاع مرة اخرى بعد عام ١٩٤٥ ، حتى وصلت ٤٥ر٧ فى الألف عام ١٩٥١ ، ثم بدات اخيرا فى الهبوط غير الملحوظ الى مستوى ٤٠ ــ ٣٦ فى الألف .

ويرجع ارتفاع معدلات المواليد الى الاقبال على الزواج وارتفاع نسبة الزوجية (٧١٪ للذكور و ٧٢٪ للاناث) ، وانخفاض سن الزواج والعوامل الاجتماعية التى تعطى المرأة المتزوجة قدرا أكبر من الاحترام مما تعطيه لغـير المتزوجة ، والتى تكسب ذات الولد مركزا أكثر أمنا لدى زوجها من غير ذات الولد .

هذا الى أن ٨٠٪ من السكان ريفيون ، وحتى الذين نزحوا الى المدن من الريف حمـلوا معهم عادات الريف وتقاليده ولم يصبحوا مدنيين فى طباعهم بعد .

وترتفع أيضا معدلات الوفيات فى مصر اذ كانت فى العشرينات تتراوح حول ٢٥ فى الألف ، ولم تزد معدلات الوفيات عن هذا الا خلال الحربين الأولى والثانية ، ويدل هذا على مدى الارتباط بين كمية الغذاء وقيمته بين الوفيات

عامة ، ووفيات الأطفال بصفة خاصة . ففى سنوات الحرب العالمية عرفت مصر نظام البطاقات الغذائية وخلط الدقيق وعز استيراد الدقيق والقمح وشاركتها القوات المسلحة من الأمم المحاربة فى غذائها .

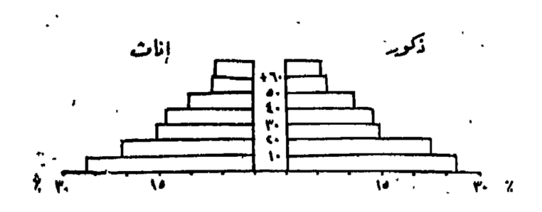
ثم سارت معدلات الوفيات نحو الهبوط منذ عام ١٩٥٠ فهبطت الى ١٩ فى الألف ، ثم ١٦ فى الألف ، كما هبطت معدلات وفيات الأطفال الرضع (أقل من سنة) . فبعد أن كانت المنية تقتنص طفلا من كل أربعة فى عامهم الأول عام ١٩٣٥ ، اذا بنسبة وفيات الرضع تنخفض الى ١٤٠ فى الألف عام ١٩٤٧ ثم ١٣٠ فى الألف عام ١٩٥٧ وهى الآن تتراوح حول ١١٠ فى الألف .

ولا شك أن هذا دليل على تقدم ملحوظ فى ميدان الصحة العامة ولكنه دون ما نرجوه لبلد على أبواب نهضة كبرى ، فلا نزال دون ما وصلت اليه دول أوروبا حتى الشرقية منها .

واذا تدبرنا جدول الحياة الثالث لسكان مصر عام ١٩٤٧ لأدركنا بعض الحقائق السكانية الهامة ، التى تؤثر على عدد السكان العاملين من ناحية ومقدار ما يضيفونه من مجهود لبناء الوطن من ناحية أخرى . فاذا اعتبرنا رعيلا من السكان عدده ١٠٠,٠٠٠ من الذكور ومثلهم من الاناث ، فاننا نجد انه لا يصل الى سن الخامسة الا ٧١,٥٠٨ ذكرا و ٧١,٨٧٣ أنثى ، ويموت ربعهم قبل أن يصل الى السنة الثالثة من

عمرهم . ولا يصل الى سن الخامسة عشرة سوى ٦٧,٣٧٢ ذكرا و ٦٨,٣٧٨ انثى ، ويبقى ٦٠٪ فقط لكى يصل الى سن الثالثة والثلاثين (٥٩,٦٦٤ ذكرا و ٦٤,٦٠٨ انثى) . ويموت نصف هذا الرعيل قبل أن يصل الى الخمسين من عمره ، ويصل ٤٠٪ منهم فقط الى سن الستين .

وقد كان متوسط العمر للذكور فى مصر عام ١٩٤٣ هو ٣٥ سنة للذكور و ٤١ سنة للاناث وكان للطفل الذى جاوز العشر سنوات من عمره أن يأمل فى أن يعيش ٣٨ سنة اخرى ، بينما يأمل قرينه فى انجلترا أن يعيش ٥٦ سنة وفى نيوزيلنده ٥٩ سنة اخرى . ولا شك أن متوسط العمر قد ارتفع ، وآمال الحياة قد امتدت فى السنوات الأخيرة ، الا أن تحليل تعداد ١٩٦٠ لم يزل بعد فى مراحله الأولى .



هرم السكان فى مصر سنة ١٩٤٧

شكل رقم (٤)

واذا اخذنا توزيع فئات السن على عمومه ، للاحظنا أن هرم السكان فى مصر يرتكز على قاعدة عريضة ، وان صغار السن يكونون ما يقرب من ٤٠ ٪ من السكان ، بينما يتركز ٥٠ ٪ من السكان فيما بين ١٥ ــ ٥٠ سنة أى فى سن العمل والانتاج للسكان عامة وسن الانجاب للمرأة بصفة خاصة ، ويكون كبار السن (فوق الخمسين) حوالى ١٠ ٪ فقط من السكان .

وهذه النسب تضع مصر فى مجموعة الشعوب الشابة الفتية من حيث نمو السكان ، ولكنها فى الوقت نفسه تضع عبئا ثقيلا متزايدا على انقطاع العامل من السكان ، ويكفى أن نعرف أن ثلثى السكان أقل من ثلاثين سنة فى العمر ، واذا اعتبرنا الأشخاص فى سن العمل ما بين ١٥ ــ ٦٥ سنة (وهى أقصى مدة تسمح بها قوانين العمل) فاننا نجد أن نسبة هؤلاء تبلغ حوالى ٥٧ ٪ من عدد السكان بينما نسبتهم هى ٦٩ ٪ من سكان السويد ، ٦٧ ٪ من سكان كل من فرنسا والولايات المتحدة .

ومن الواضح أن الأشخاص الذين هم فى سن العمل لا يعملون جميعا بالفعل ، اذ ان نسبة كبيرة من النســاء لا تعمل ، وقد قدرت نسبة السكان النشطين اقتصاديا فى مصر بنحو ٣٨ ٪ سنة ١٩٣٨ بينما بلغت هذه النسبة ٤٧ ٪ فى بلد كالسويد و ٤٩ ٪ من سكان فرنسا و ٤٠ ٪ من سكان الولايات المتحدة فى نفس الفترة .

والمهم لدينا ــ فيما يختص بالزيادة الطبيعية ان نصف اناث مصر تقريبا يتركزن فى سن الانجاب ، فاذا أضفنا الى هذا انخفاض معدلات وفيات الاناث فى سن الانجاب ، لاتضح لنا أن شعب مصر من أكثر الشعوب انجابا فى العالم . وكل امرأة فى مصر تنجب فى المتوسط ثلاث بنات ، تعيش منهن بنتان تحملان رسالة النوع للجيل الجديد ، وهذه نسبة تعويض مرتفعة .

ان عدد سكان مصر فى تزايد مستمر ، ليس هذا فحسب ، بل أن معدل الزيادة فى صعود دائم ايضا . والسبب فى هذا هو التحسن المطرد من الخدمات الصحية ومكافحة الأوبئة وخصوصا أمراض الأطفال . وانتشار الوعى الصحى واقبال الناس على تطعيم أطفالهم ليس ضد الجدرى فحسب ــ كما كانت الحال منذ عشرين عاما ــ بل وضد أمراض أخرى كالسعال الديكى ، والدفتريا ، وتعميم اللقاح ضد شلل الأطفال ، ويضاف الى هذا ارتفاع مستوى المعيشة ارتفاعا مطردا . كل هذه العوامل أدت الى نقص وفيات الأطفال كما أدت الى نقص الوفيات عامة ، هذا بينما لا يزال الناس على عاداتهم القديمة فى الاقبال على الانجاب مما جعل الفرق كبيرا بين نسب الوفيات التى تستمر فى الانخفاض (١٦ فى الألف) ونرجو أن تستمر فى الانخفاض أكثر فأكثر ، ونسب المواليد الثابتة فى الارتفاع (٤٠ فى الألف) .

لقد كانت كل زيادة فى السكان تجد ما يستوعبها من مجالات العمل حتى أوائل العشرينات ثم كانت ثورة مصر الصناعية الأولى ، والشعور بضغط السكان المتزايد على الأرض والثروة القومية ، أو وجود تحد جديد ، تقابله البلاد الآن بثورتها التاريخية الكبرى ، وهى ثورة لا تقاس بها اى ثورة أخرى ، انها ثورة جذرية ، ذات أبعاد ثلاثة ، سياسية واقتصادية واجتماعية ، لم تستهدف التحرر السياسى الكامل فقط ، بل التحرر الاقتصادى والاجتماعى كذلك فأعادت توزيع الأرض الزراعية وخلصتها من الاقطاع والملكيات الكبيرة من ناحية ، ومن أيدى الملاك الأجانب من ناحية أخرى . وبدأت عملية تصنيع شامل للبلاد ، تعتمد على الصناعة الثقيلة وتضع قواعدها . كما قامت بتنفيذ واحد من أضخم مشاريع تخزين المياه فى العالم ، وهو السد العالى ، الذى سيصل بكفاية الانتاج الزراعى الى الحد الأقصى ، فسيضاف الى أرض مصر ٧٥٠ر١٠٠٠ر... فدان ، كما سترووى أراضى الحياض فى الصعيد رياً دائما ، ومعنى هذا اضافة ثلاثة أو أربعة ملايين فدان من المحاصيل الى مساحة المحاصيل الحالية ، وهذه أضخم اضافة الى مساحة المحاصيل تحدث فى تاريخ مصر . وستكون من نتائج تطبيق خطط مضاعفة الدخل القومى والسير فى خط الاشتراكية ، اعادة توزيع الدخل القومى فى البلاد ، واعادة توزيع قوة

العمل على أوجه نشاط جديدة ، وايجاد توازن فى العمل والانتاج بين الزراعة والصناعة .

لقد مرت اقطار غرب أوروبا بمثل هذه الفترة التى تمر بها مصر الآن ، وجاء ذلك نتيجة التقدم العلمى والتكنولوجى ، وكانت المصانع الجديدة تستوعب تلك الأعداد المتزايدة من السكان باستمرار مما جعل نظرية مالثس عقيمة لا جدوى منها ، ثم حدث بعد ذلك أن انتقل شطر كبير من السكان من الريف الى الحضر ، بانتقالهم من الزراعة الى الصناعة ، فحدث تطور اجتماعى ، من مجتمع كان يعتبر الطفل ميزة اقتصادية الى مجتمع يعتبره عبئا اقتصاديا . وحدث أن هبطت الوفيات هبوطا شـديدا ، فأدرك المجتمع ضرورة ضبط النسـل لكى يضمن لأفراده مستوى مرتفعـا من المعيشة . وكانت النتيجة النهائية لهذا كله أن وصل السكان فى أوروبا الى مرحلة التوازن المنشود بين عدد السكان وموارد الثروة الطبيعية للبلاد ، فهل اتجاه السكان فى مصر يشير الى مثل هذا ؟

نعم ، نحن فى مصر سائرون فى نفس الاتجاه ، فنسبة سكان الريف قد انخفضت من ٨٠ ٪ سنة ١٩١٧ الى ٧٦ ٪ سنة ١٩٣٧ الى ٧٠ ٪ سنة ١٩٤٧ الى ٦٢ ٪ سنة ١٩٦٢ ورغم أن عددا كبيرا من الوافدين حديثا من الأرياف لايزالون يحملون عادات وطابع الريف ، الا أن الجيل التالى مباشرة

سرعان ما يتحول الى مدنى صرف ، فى عاداته وتقاليــــده وآماله وطموحه .

وهناك عمل دائب نحو التصنيع ، وهذا من شانه أن يحلق مجتمعات صناعية جديدة تعيش فى المدن ، فى شقق صغيرة ، وترسل بأبنائها وبناتها الى المدارس وتنفق عليهم — بفضل مجانية التعليم — حتى سن تأهيلهم للعمل . ولا بد وان الأسرة الجديدة فى المدن تحتاج لمواد ومعدات تعتبر كمالية فى الريف ، ولهم تطلعاتهم الخاصة نحو مستوى معيشى مرتفع . وهذا سيدعوها حتما الى ممارسة ضبط النسل ، لا لكى تحافظ على مستواها المعيشى فحسب ، بل لترفعه كذلك .

والذى يدقق فى الاحصاءات السكانية سيجد أن هناك ميلا طفيفا الى تباطؤ أو تلكؤ الزيادة الطبيعية فى السكان فى الوقت الحاضر ، يدل عليه انخفاض خصوبة المراة المصرية انخفاضا يسيرا ، ولكن آثاره ستظهر فى مستقبل الأيام . وهذا امر طبيعى اذ أن التطور الاجتماعى نفسه يتجه نحو تخفيف حدة زيادة السكان المرتفعة وذلك بسبب انتشار التعليم ، وخصوصا تعليم الفتاة ، مما اخر سن الزواج — دون حاجة الى تشريع — وادراك المراة لحقها فى أن تعيش وتستمتع بالحياة بدل من أن تكون مجـــرد آلة لانجاب الأطفال فحسب ، واقتحامها ميدان العمل وتطلع الأزواج الشبان نحو معيشة أكثر ارتفاعا .

ويدل على هذا الاتجاه انخفاض مستوى حجم الأسرة في مصر من سنة ١٩٠٧ الى ١٩٥٧ ، فقد كان متوسط حجم الأسرة ٨ر٥ فردا سنة ١٩٠٧ ، فاصبح ٣ر٥ سنة ١٩٢٧ ، ٥ سنة ١٩٣٧ ، ٧ر٤ سنة ١٩٤٧ ، ٩ر٤ سنة ١٩٥٧ .

ان ارتفاع نسب التعليم ، ولا سيما تعليم البنات ، واقبال المرأة على ميدان العمـــل ، وارتفاع نسب سكان الحضر ، وارتفاع نسب المشـتغلين بالصناعة ، كل هـذا سيؤدى حتما الى ممارسة عادات ضبط النسل والسير بسكان مصر الى مرحلة التوازن المنشود بين عدد السكان والانتاج .

وبعد . ما هو مســتقبل السكان فى مصر ؟ وما هو الموقف السكانى بالنسبة لبلادنا ؟ وما علاقة ذلك بمستوى المعيشة ومشاريع التنمية الاقتصادية ؟

ان سكان مصر يتزايدون بنسبة تتراوح بين ٢ و٥ر٢ ٪ فى المائة كل عام . وهذه نسبة كبيرة بلا شك ، ولكن اذا نظرنا الى تطور سكان مصر على ضوء تطورها الاقتصادى والاجتماعى للاحظنا للوهلة الأولى أن كل زيادة سكانية فى مصر كانت نتيجة مباشرة لتوسع اقتصادى ، فمشاريع الرى الكبرى منذ مطلع القرن التاسع عشر كان يتربعها زيادة سكانية ، لأن هذا معناه توسع فى الزراعة الأفقية بتوصيل المياه الى حافات الصحراء أو البرارى شمالا وحواف الحياض فى الصعيد ، وتوسع فى الزراعة الرأسية بتحويل

الحياض الى رى دائم . وكان هذا يعنى زيادة فى المحاصيل ولا سيما المحاصيل النقدية (كالقطن وقصب السكر) ، فزيادة فى الدخل القومى ، فتحسن فى الخـدمات الصحية التى تقدمها الدولة للسكان ، وارتقاء فى المقدرة الاقتصادية للأفراد ، وارتفاع لمستوى معيشتهم وانخفاض فى الوفيات . وكان انخفاض الوفيات ــ مع بقاء معدلات المواليد على ما هى عليه ــ هو السبب المباشر فى زيادة سكان مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر .

وتكاد هذه الظاهرة أن تكون قانونا مضطردا فى مصر . هذا البلد الذى يعتمد اعتمادا مباشرا وكاملا على مياه النيل المتدفقة من هضاب الحبشة والبحيرات الافريقية . فكلما كانت البلاد تتمتع باستقرار وأمن داخليين ، وادارة قوية مركزية ، تتولى عملية توزيع الميـــاه على حقول الفلاحين بعدل ودقة ، وتتدرج بعد ذلك الى عملية ضبط مياه النيل ، حتى لا تتعرض البلاد لهزات مائية عنيفة تعرض محاصيلها الزراعية للخطر ، فتخفف من غوائل الفيضانات المرتفعة ، أو الفيضانات المنخفضة ، وتخزن من المياه ما نحتاج اليه فى أوقات التحاريق ، فان النتيجة لهذا هو الاستقرار الزراعى أو المحصولى ، مما يحقق قدرا من التنمية الاقتصادية ، والاقتصاد المستقر وهذا بدوره يؤدى الى رفع مستوى المعيشة فهبوط الوفيات فزيادة السكان ــ كما أن زيادة السكان بدورها تؤدى الى مزيد من عمليات ضبط النهر ،

والتوسع الزراعى وزيادة الدخل القومى وارتفاع مستوى المعيشة وهبوط الوفيات فزيادة السكان مرة أخرى وهكذا.

لقد اضطردت هذه الظاهرة فى مصر منذ ان استطاع أول حاكم مصرى توحيد الدلتا والصعيد ، واقامة ادارة موحدة مركزية قوية ، ومنذ أن استطاع هذا الحاكم أن يوحد جهود سكان هذا الوادى وينظمها فى اتجاه واحد ، لترويض هذا النهر ودفع غائلة فيضاناته ، وفى اجتناء ثمرات هذا العناء ، مساحة من الأرض مزروعة بمحاصيل ثابتة عاما بعد عام . وكان الله بمصر رحيما ، فلا يجرى الفيضان الا بعد جمع محاصيل الحبوب والحنطة .

ومن ثم كانت الحضارة المصرية ، التى تعتمد على قاعدة سكانية قوية مستقرة لا تعرف الاضطراب أو التجوال ، ذات قيمة اقتصادية قوية . لأنها استطاعت أن تمارس فنون الزراعة الراقية فى أرض خصبة . وهذا ما أعطى الحضارة المصرية أهم مميزاتها : القدم والاستمرار . فهى حضارة عريقة مستمرة طوال القرون .

ولا شك أن كفاية عدد السكان من أهم العوامل التى ساعدت على قيام الحضارة المصرية واستمرارها ، والتى ثبتت دعائم الاقتصاد المصرى خلال تاريخها الطويل الذى يقدر الجزء المكتوب منه فحسب بنحو أربعة آلاف عام ، سبقته آلاف أخرى فيما يسمى بعصور ما قبل التاريخ وما قبل الأسرات .

وان الناظر فى تاريخ مصر العام ليلاحظ انه فى الفترات التى حدثت فيها ثغرات فى هذه المعادلة السكانية ، انهار الاقتصاد المصرى ، وانهار السكان كذلك ، وكانت هذه هى فترات الحضيض فى تاريخ البلاد . ففى عصور الاقطاع خلال التاريخ الفرعونى — وفى عصر اضمحلال الحضارة المصرية القديمة ، وفى نهـــاية العصر البيزنطى وفى العصر التركى العثمانى ، اضطرب حبل الأمن واختل النظام ، وتقلص ظل الادارة وضعفت قبضتها ، ولم تعد بقادرة على ترويض النهر واهملت اعمال الرى وتخلت عن مهمة توزيع المياه بالعدل ، وتعرضت البلاد — فى معظم هذه الحالات — الى العدوان الأجنبى ، وماث اللصـــوص فسادا فى ربوع الوادى ، وتعرضت البـــلاد للمجاعات واجتاحتها الأوبئة والطواعين . وكان معنى ذلك زيادة الوفيات زيادة تفوق المواليد ، مما دعا السكان الى التقلص والهبوط . حتى انه وصل الى ما يقرب بالكاد للمليونى نسمة فى آخر العصر التركى العثمانى (أيام الحملة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر) بعد أن كان عددهم قد يصل لى ١٤ مليون نسمة فى العصر العربى الاسلامى ، كما ذكر المؤرخون العرب ، والى مثل هذا العدد ايضا فى عصورها المزدهرة القديمة كما ذكر المؤرخون الافريق والرومان .

زيادة السكان اذن نتيجة للتقدم الاقتصادى ، وعامل فى استمرار هذا التقـــدم . ونقص السكان نتيجة للتأخر

الاقتصادى وعامل فى استمرار التخلف الاقتصادى . هذه حقيقة يثبتها التاريخ الاقتصادى للسكان ، ليس فى مصر فحسب ، بل فى العالم كله . فقلة السكان ، بالنسبة للموارد الممكن استغلالها - أكبر عائق يحول دون التنمية الاقتصادية ، وقد مرت مصر بفترة كهذه فى مطلع القرن التاسع عشر ، الا أنه سرعان ما لحق السكان بالكفاية العددية اللازمة للتطور الاقتصادى كما بينا من قبل .

ولقد استطاعت مصر - فى تاريخها الحديث والمعاصر - ان تقابل تحدى زيادة السكان ، فنشأت الثورة الصناعية الأولى فى العشرينات ، على أساس بنك مصر وشركاته . ثم هاهى تقابل تحدى التضخم السكانى بمشاريع جبارة ، لا عهد لها بها من قبل ، وهى مشاريع السد العالى والثورة الصناعية الشاملة التى تسير فيها بأقدام ثابتة وعزم صادق .

ان الثورة المصرية التى تفجرت صبيحة الثالث والعشرين من يوليه ١٩٥٢ قد جابهت مشاكل مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية مع عدة جبهات . كل منها يؤازر الآخر ويقويه . وهى تذكرنا فى مدى عشر سنوات بما حدث فى اقطار غرب أوروبا على مدى ثلاثة قرون . فقضت على الاقطاع وحررت الأرض من ربقة الملاك الكبار المستغلين وبهذا - لم تعد للفلاح كرامته فحسب - بل أنها منحته طاقة جديدة لاستثمار الأرض لصالحه كفرد وصالح المجتمع

كله . ومن الممكن فى الوقت الحاضر أن تجرى بنجاح تجارب جديدة فى استثمار الأرض ، مثل تجميع مساحات واسعة من الأرض لمشروع واحد ، تجرى زراعته على اسس اكثر اقتصادية مما تجرى عليه الزراعة فى الوقت الحاضر - ومن الممكن اجراء تجارب جديدة فى ادخال محاصيل نقدية ذات عائد اقتصادى كبير فى شطر من الأرض . وهكذا مما لا سبيل لحصره الآن .

والثورة المصرية الكبرى امممت قناة السويس ، ومعنى هذا أن مصر - لأول مرة فى تاريخها الحديث - تستغل موقعها الجغرافى لصالح أبنائها . فلم تعد عائدات المرور من القناة تتدفق الى البنوك الأجنبية وتترك القناة تمر فى صحراء . واصبحت هذه العائدات تمثل قدرا كبيرا من الدخل الذى يوجه نحو الاستثمارات الداخلية فى الصناعة والخدمات .

واكبر مشروعات لثورة المصرية الكبرى ، وهو السد العالى سيخزن مياه النيل التى كانت تتدفق نحو البحر المتوسط ويضبط النهر ضبطا ليس لنهر آخر فى العالم عهد به ، بحيث يتحكم المصرى الحديث فى كل قطرة من الماء تجرى فى وادى النيل الأدنى ودلتاه ، ومن المقدر ان كميات الماء المخزونة ستكفى لرى مليون فدان جديد فى شمال الدلتا ، بحيث تصبح كلمة البرارى الملحة من تعبيرات الماضى ، كما سيمكن رى ثلاثة أرباع مليون فدان أخرى فى

حواف الحياض فى الصعيد ، وسترتفع بذلك مساحة أرض مصر المنزرعة الى ٧ر٢ مليون فدان ، كما ترتفع مســاحة المحاصيل الى ما يقرب مس ١٢ مليون فدان .

ولا شك ان هــذا التوسع الأفقى ــ وما يتبعــه من توسع راسى ــ نتيجة للسد العالى ، ليعــد قفزة رائعة فى التنمية الاقتصادية الزراعيــــة . كما أن مياه النهر التى سيحجزها السـد العالى والأراضى الجـديدة التى ستروى لأول مرة ، ستمنح الادارة المصرية فرصة لاجراء تجارب جديدة فى ادخال محاصيل نقدية جديدة لم تعرفها مصر من قبل ، وادخال تجارب جديدة فى الانتاج الزراعى ، كفيلة بانماء الدخل القومى الناتج للزراعة ، فوق ما كانت تحققه وسائل الانتاج ومحاصيله الزراعية التقليدية السابقة .

وتقبل البلاد فى الوقت الحاضر على مصر صناعى بمعنى الكلمة ، يعتمد على استغلال موارد الطاقة الجديدة ــ وأهمها الكهرباء المولدة من السد العالى والبترول ــ وارساء قواعد الصــناعة الثقيلة . وهذه الثورة الصــناعية ، مع الثورة التشريعية فى مجالات العمل والعمال ، ستؤدى الى تغيرات اجتماعية كبيرة ، ذات اثر مباشر على المسألة السكانية ، يمكن أن تلخص على النحو الآتى :

١ ــ ستتحول بعض المراكز القروية الى مراكز حضرية ومدن .

٢ ـ سيتحول شطر متزايد من السكان من العمل فى الحقل الى العمل فى المصنع .

٣ ـ سيتحول شطر متزايد من السكان أيضا من سكان ريف الى سكان حضر .

٤ ـ سيعاد توزيع السكان بحيث تحدث هجرة من جنوب الدلتا المزدحمة بالسكان الى شمال الدلتا وحواف الصحراء شرقا وغربا ، وهى الجهات المستصلحة حديثا . كما ستحدث هجرة أخرى من الصعيد الأوسط المزدحم بالسكان الى المراكز الصناعية الحديثة فى أسوان وربما الى مراكز التعدين والبترول الجديدة على ساحل البحر الأحمر وخليج السويس .

وسيكون من شأن التحول الحضرى أن يحدث تغيرا فى نظرة المجتمعات الجديدة نحو النسل ، اذ أن رفع سن الالزام فى المدرسة الى سن الثانية عشرة ، وقوانين العمل التى تحرم تشغيل الأحداث ، ستجعل من انجاب الأطفال عبئا اقتصاديا بالنسبة للعامل ساكن الحضر ، بعد أن كان يدا عاملة رخيصة بالنسبة للفلاح ساكن الريف .

ان الحياة فى المدن ، ورفع مستوى المعيشة ، سيدفع بالناس حتما الى التفكير الجدى فى ضبط النسل ، حتى يستطيع الفرد ـ ساكن المدينة ، المتطلع الى حياة أفضل ، أن يعيش فى مستوى معيشى معقول .

كما أن هذا « المهاجر » الجديد ، من الريف الى الحضر ،

سيلمس بيديه آثار العلم والحضارة ، فيرقب باغتباط كيف ترعى الدولة الأطفال من عـدد كبير من الأوبئة القـاتلة ، وكيف تبنى لهم المدارس ، وتحرم استخدامهم فى المصانع قبل فترة تأهيل معينة ، وكيف أن المنية لم تعد تحصد من اطفاله ما كانت تحصده من قبل ، فيقنع بالعدد المعقول من الأطفال .

ان ضبط النسل لم يات الا بعد ضبط الوفيات ، وكل مجتمع تمتع بمستوى معيشى معقول ، يعمل من تلقاء نفسه نحو ضبط النسل لينعم بمستوى معيشى أفضل .

ويساعد على ذلك اقبال الفتيـات على التعليم وعلى النزول الى ميدان العمل ، فتعليم الفتاة عامل هام فى تأخير سن الزواج ، وهـذا يعنى اختزال فترة الانجاب ، فقلة المواليد . كما أن المرأة العاملة تعمل — من تلقاء نفسها — على ضبط النسل ، ومن ثم كان تحرر المرأة أهم عامل فى ضبط النسل .

ان المعادلة بين عدد السكان والموارد الطبيعية من أعوص المشاكل التى قابلت المجتمعات البشرية ، ولا تزال تقابلها ، منذ أقدم العصور حتى الآن . فليس غريبا ما نلمسه فى الوقت الحاضر من قلق على مستقبل السكان فى مصر وعلاقته بالموارد الاقتصادية . وان مثل هذا القلق ليدخل فى نطاق السياسة السكانية التى ينبغى لأى مجتمع أن يرسمها . وهو موضوع متشعب يستحق الدراسة الدقيقة . وان

كنا قد المحنا الى سماته العامة فيما كتبنا من التاريخ الاقتصادى لمصر وعلاقته بالنمو السكانى فى القرنين الأخيرين .

ان مصر تدخل فعلا فى المرحلة التالية للانفجار السكانى . وقد حدث هذا الانفجار كما ذكرنا نتيجة للتطور الاقتصادى وخفض الوفيات ، وبقاء الناس على عاداتهم القديمة من الانجاب .

وملامح هذه المرحلة ، مرحلة النمو المتريث ـ ولا نستطيع أن نقول البطىء ـ هو بدء انخفاض متوسط حجم الأسرة فى مصر من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٥٧ .

وهذه ولا شك علاقة طيبة ، تبين ان الشعب المصرى بدأ يسير فى الاتجاه السكانى الصحيح . فضبط الوفيات لابد أن يتلوه ضبط فى السكان .

الا أن الزيادة الطبيعية للسكان فى الوقت الحاضر لا تزال مرتفعة ارتفاعا كبيرا ، اذ هى تتراوح بين ٥ر٢ ـ ٧ر٢ ٪ فى السنة .

المسألة اذن تتلخص فيما يلى :

هبطت معدلات الوفيات ولا تزال معدلات المواليد مرتفعة .

فزاد عدد السكان زيادة كبيرة .

فاذا اردنا أن نرتفع بمستوى المعيشة ارتفاعا ملحوظا ،

فلا بد من الحد من الزيادة الكبيرة للسكان خشية أن تلتهم كل نتائج التنمية الاقتصادية التى نسير فيها .

ان سكان مصر من الحيوية والاقبال على الحياة بحيث استطاعوا مقابلة تحديات اقتصادية كبيرة ، وطوروا زراعتهم القائمة على الرى ، وجنوا ثمار هذا التطور الاقتصادى فارتفع مستوى المعيشة وهبطت معدلات الوفيات .

الا انه يجب أن نساعد العملية الاجتماعية التى تسير فى تطورها الطبيعى ، بحملة توعية كاملة تسعى لتأكيد هذا الاتجاه السكانى وهو خفض حجم الأسرة . ويجب أن تتجه هذه الحملة اول ما تتجه الى الريف ، لأن سكان المدينة يدركون بحسهم وبثقافتهم وبمستواهم الاقتصادى والمعيشى ضرورة ضبط النسل .

واذا تركنا سكان المدن جانبا — على اعتبار انهم يسيرون فى الاتجاه الصحيح ويعملون بحكم ثقافتهم ومستوياتهم المعيشية على ضبط النسل . فاننا نرى أن المشكلة الحقيقية تتركز فى سكان الريف . ولا سيما انهم يكونون الغالبية من سكان البلاد . الى هؤلاء السكان يجب الاتجاه بحملة توعية واسعة الانتشار ويجب التركيز — بالنسبة لهم — على النقط الآتية :

١ — أن الدولة بخدماتها الصحية الواسعة تعمل على اطالة متوسط عمر الفرد . وتعمل على المحافظة على الأبناء الذين ينجبهم الريف .

٢ ـ ما دامت الدولة تفعـل ذلك ، وتقدم خـدمات صحية وتعليمية واسعة فلا بد من مساعدتها للوفاء بهذه الخدمات .

٣ ـ لا يتأتى ذلك الا اذا كان العبء الملقى على عاتقها أخف .

٤ ـ الأسرة الصغيرة الحجم تعيش فى مستوى معيشى أفضل من الأسرة كبيرة الحجم .

٥ ـ لا تتعارض هذه الدعوة مع الدين اطلاقا . فالقاعدة الشرعية لا ضرر ولا ضرار . وهناك فتوى للامام الغزالى فى هذا الموضوع تبيح منع الحمل لأسباب ثلاثة : الخشية على المال والخشية على الجمال والخشية من كثرة العيال وقلة النفقة .

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقى

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة ومتخصصين وبخمسة قروش لكل كتاب
- تصدر مرتين كل شهر في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

الأراضي والمجتمع

[illegible]

١٥ سبتمبر ١٩٦٥

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة